رواية

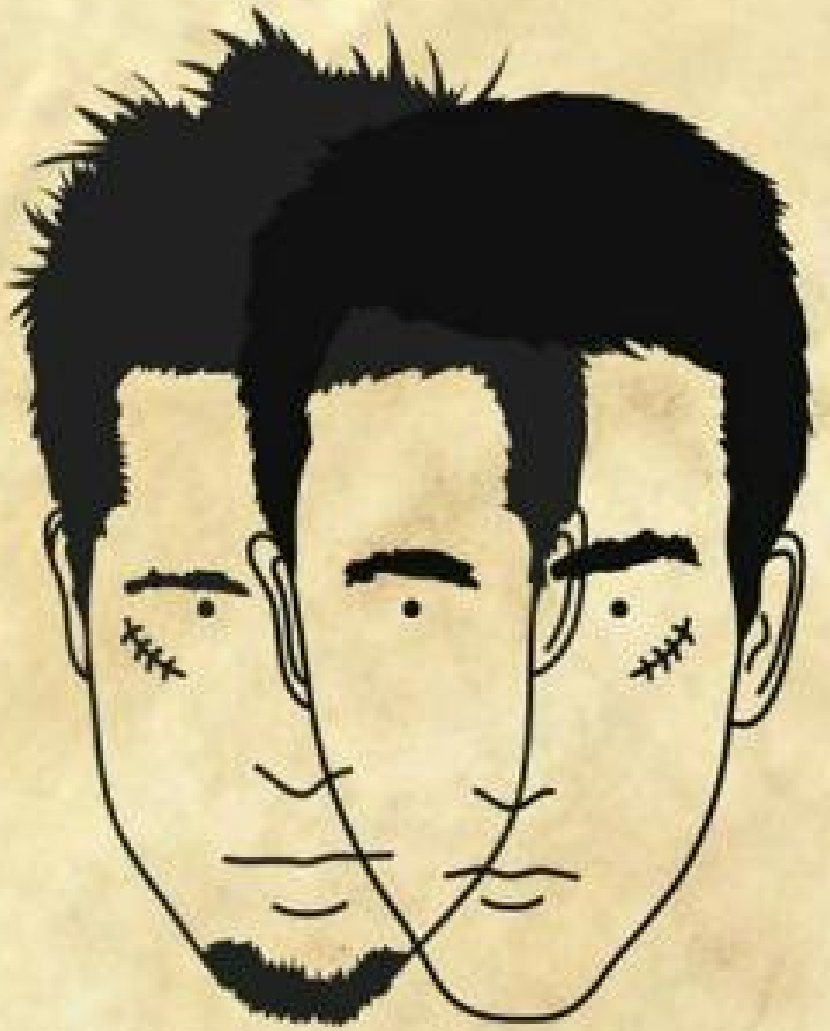

مقايضة

جابر القصاص

جابر القصاص
مقايضة
ابن صعيط للطباعة

رواية

مُقايضة

بقلم

جابر القصاص

الفصل الأول

قال وأصابعه تلف ورقة البفرة بسرعة وإتقان شديدين:-

- "(مختار) يا صديقي، لا يوجد شيء اسمه أدب أو أدباء!"

انقبض قلبي حين سمعت هذا القول، لقد بدأ (أبرهة) في التفلسف، وهو آخر شخص بالعالم يروقني أن أنصت إلى فلسفته الشاذة والسخيفة!

انتهى من إعداد سيجارته التي حوت شيئًا ما مبهمًا بالنسبة لي خلاف التبغ، ثم رفعها نحو أنفه الغليظ، وأغمض عينيه وهو يتشممها بشبق، وبدا على وجهه الرضا وهو يضيف:-

- "أي طفل نبيه يذهب إلى المدرسة دون أن يكتب الواجب وهو يخشى العقاب يتحول إلى (نجيب محفوظ) أو (يوسف إدريس)، ويختلق قصة عبقرية تبرر تقصيره.."

السيجارة لا تبدو مكتنزة كتلك السجائر الملفوفة التي أراها بيد بعضهم أحيانًا ممن يتعاطون البانجو أو الماريجوانا وما شابه ذلك، بالعكس بدت بالحجم الطبيعي كأي سيجارة أخرى، أو أغلظ بدرجة قليلة بالرغم من أنه أضاف إليها شيئًا ما بجانب التبغ!

دس مبسم السيجارة بين شفتيه الغليظتين، وأشعلها بقداحة فاخرة لا أدري من أين أتى بها، فتوهج مقدم السيجارة بشكل أكثر من الطبيعي المألوف، وجذب أول نفس منها وهو يستطرد:-

- "الأدب ما هو إلا كذب كبير، يحتوي على تفاصيل كثيرة، الأديب شخص كذاب، ومكانته كأديب تتوقف على درجة مقدرته على الكذب، في الواقع كل

المحتالين أدباء بارعون!"

خرج الدخان من منخريه وفمه كثيفًا ذا رائحة غريبة وخانقة، لم أملك نفسي من السعال، رحت أسعل بقوة وأنا أفتش عن منديل بجيبي لأضعه فوق أنفي كي لا أستنشق هذا الدخان الكثيف ذا الرائحة الخانقة.

قلت لنفسي: يجب أن أنتهي من هذا سريعًا وإلا متّ مختنقًا، لم آت إلى هنا لسماع مثل هذه المحاضرات.. سألني فجأة:-

- "قلت لي: ما اسم صديقك؟"

يبدو أني نسيت علبة المناديل بالمكتب، سأضع يدي فوق أنفي وأحاول تقليل استنشاق هذا الدخان الخانق، لعله يفطن لهذا ويتوقف عن إخراج ذاك الدخان من باب اللياقة على الأقل، أجبت بصوت مكتوم:-

- "اسمه (ناصر الباز)، ربما تكون سمعت عنه، له قصص تحولت إلى أفلام ومسلسلات، أشهرها رواية اسمها (مقايضة)، تحولت إلى فيلم سينمائي، لعلك شاهدته أو سمعت عنه"

هز رأسه نفيًا، وقال:-

- "أنا لا أشاهد التليفزيون كما تعلم، من يديرون التليفزيون يكذبون أكثر من الأدباء أنفسهم.."

بصق جانبًا ثم أضاف:-

- "نحن في زمن الكذب والزيف، لا أعتقد أن إبليس صادف زمانًا بهذا السوء طيلة حياته، أنا واثق من أنه سعيد جدًا الآن!"

قلت وقد بدأت أشعر بدوار:-

- "هل تعلم أن (ناصر الباز) كتب قصة عن هذا الذي تحكيه؟ لكنه مزقها قبل أن تنشر!"

تمنيت ألا يسألني عن السبب، وهذا ما حدث لحسن الحظ، إنه غير مهتم بـ (ناصر الباز) وما يكتبه، وأعرف جيدًا ما الذي يهمه، أريد أن أنتهي من هذا سريعًا!

لكنه استمر في جذب أنفاس سيجارته الغريبة، ونفث دخانها الخانق، وأضاف سؤالًا جديدًا:-

- "متى يريد أن يقابلني؟"

قلت وأنا أقاوم الدوار:-

- "في أي وقت يناسبك أنت"

قال بغموض:-

- "يبدو أنه متلهف لمقابلتي"

فهمت ما يرمي إليه، يريد أن يعلي من سعر المقابلة، لن أمنحه هذه الفرصة:-

- "لا أبدًا.. هو ليس متعجلًا بالمرة، حتى أنه طلب مني ألا أضغط عليك إذا لم تستجب للدعوة"

لم يرقه هذا كما توقعت، كان يريد أن يساوم ويرفع السعر لأقصى مدى، لاذ بالصمت برهة اشتد فيها الدوار برأسي، مع رغبة حادة في القيء، وعدت على السعال مجددًا، وسمعته يقول:-

- "لنضع النقاط فوق الحروف: أنا لن أحكي شيئًا عن حياتي بالمجان، كما لن أسمح لوغد يظن أنه كاتب كبير أن يشوّه سمعتي في رواية أو مسلسل، ويظهرني في مظهر شيطاني!"

كدت أن أضحك وأنا أسمع هذا القول منه، إنه آخر شخص بالكون يفترض أن يتحدث عن السمعة أو الشيطنة، يكفي أن الجميع يعرفه باسم (أبرهة الأشرم) في هذا الحي والأحياء المجاورة، حتى في دفاتر الشرطة والنيابة يكتبون

اسمه الحقيقي رباعيًا ويلحقون به عبارة: "وشهرته (أبرهة الأشرم)"، ثم يتحدث عن تشويه سمعته وشيطنته؟ أتحدى أن يوجد شخص واحد بهذا العالم لا يعتبره شيطانًا!

نهضت قائمًا لأغالب الدوار والرغبة في القيء، وقلت لاهثًا من محاولات كتمان أنفاسي وتجنيبها ذاك الدخان المريع:-

- "هو لا يريد تشويهك أو شيطنتك، ولن يذكرك أصلًا في كتابه، هو يريد أن يكتب عن شيء يفتقر إلى كثير من المعرفة به، ويعتقد أنك أنت من ستحمل له تلك المعرفة المنشودة، إنه يريد أن يكتب عن جانب من الحياة تعرفه أنت، ولا يعرفه هو، لا يريد أن يكتب عن أحد الأشخاص!"

نفث الدخان يوجهي مباشرة، أظنه عامدًا هذه المرة، وقال:-

- "لكن عليه أن يعلم أن هذه المعرفة لها ثمن!"

أشحت بوجهي عن الدخان الذي تدفق باتجاه وجهي، وقلت:-

- "هو يعرف هذا، ولن يحدث خلاف بينكما في هذا الجانب."

بالرغم من وقاحة (أبرهة) إلا أني أحبه حين يكون صريحًا لا حين يكون متفلسفًا، هو لا يهمه شيء سوى الحصول على المال، بوسعه أن يبيع أي شيء مقابل المال، فليتحدث حول هذا إذن وليدعه من ادعاء الفضيلة، والفلسفة المتحذلقة التي يحاول طوال الوقت أن ينتحلها!

- "إذن نحن متفقون: أنا وأنت وهو؟"

فرحت كثيرًا بسماع هذا القول منه، لأنه يعني نهاية هذه المقابلة التي توشك أن تفقدني وعيي اختناقًا، أومأت برأسي مؤيدًا، ثم قلت مصححًا:-

- "أنت وهو متفقان، أنا مجرد وسيط، ودوري ينتهي بجلوسك أمامه، وحتى لن أكون حاضرًا تلك الجلسة"

صحح لي هو الآخر قائلًا:-

- "دورك ينتهي بأن أحصل على عرقي المناسب، أنا أعرفك أنت لا هو، وأنت من ستأخذني إليه، ولن يسعدني أن أكتشف أن شخصًا ما حقيرًا يعتقد أنه أديب ومثقف يحاول استغلالي أو خداعي، ولن أغفر لمن قاده إليّ حتى لو كان صديقًا قديمًا!"

أفزعني هذا القول، فهو يحمل تهديدًا واضحًا، لكني قلت محاولًا إصلاح الموقف:-

- "لا يوجد أي خداع أو استغلال من أي نوع، وسترى بنفسك، أنت صديقي مثله، ولن أقبل بأن يجور أحدكما على الآخر، وأنا واثق من حسن نيته هو."

جذب آخر نفس من سيجارته التي لا تزال متوهجة، وخرج صوته خانقًا تمامًا كدخان سيجارته، وهو يقول:-

- "سأفكر للمرة الأخيرة في الأمر، وأرد عليك في أقرب وقت، هيا اذهب الآن لأن معي عملًا تأخرت عليه"

في الواقع لا يهمني أن يوافق أو لا، بل إني أتمنى أن يرفض، لكن ما يهمني الآن أن أغادر إلى الهواء الطلق لأتنفس هواء نقيًا بدلًا من هذا الدخان الخانق، لكن أين أجد هواء نقيًا في مدينة مثل القاهرة؟!

أنا لا أستطيع أن أحدد أو أصف علاقتي بـ (أبرهة الأشرم).. نعم كنا صديقين مقربين في الطفولة، وكنا أيضًا زميلي دراسة، فقد كان يدرس معي بنفس الفصل في المرحلة الابتدائية، ونحن لم نزل صبيين بريئين، وكنا نتشابه في بعض الأمور، فمثلاً: كلانا فقد أباه مبكرًا جدًا ونشأ يتيمًا ترعاه أمه فحسب، وكلانا كان فقيرًا للغاية بالكاد يجد ما يسد به الرمق، وبدأنا نزاول بعض الأعمال البسيطة

في سن صغيرة، لنتمكن من مواصلة الحياة تحت طيات الفقر المتراكم.

لكن الفوارق بيننا كانت أكبر وأكثر، فبالنسبة لي كنت تلميذًا نبيهًا إلى حد ما، يمكن إعطاؤه تقدير جيد، أو فوق متوسط، أما (الأشرم) فكان تجسيدًا حيًا للبلاهة والبلادة في أسوأ نماذجها، وكان يوصف من جميع المعلمين بأوصاف من نوعية: الحمار، والبغل، وما شابه ذلك. بالإضافة إلى ميوله العدوانية التي ظهرت منذ نعومة أظفاره، وكانت هوايته المفضلة مصارعة الصبية الآخرين وطرحهم أرضًا، ويجد نشوة عظيمة في توجيه الصفعات والركلات إلى الآخرين، ولم يكن يمر يوم عليه دون أن يشتبك في عراك، حتى تعب ناظر المدرسة ومعلموها من عقابه وطرده.

اسمه الحقيقي (عثمان سيد أبو العلا)، هو يزعم أن جده الأكبر نزح من محافظة قنا بجنوب مصر إلى القاهرة، وحاول أن يلقب نفسه بـ (القناوي) كإشارة لموطنه الذي جاء منه، لكن أحدًا لم يصدق هذا الزعم، حيث لم ير أحد منه أي شيء على الإطلاق يوحي بأن تكون له صلة بأهالي الصعيد المعروفين بالشهامة والنبل، بل ما رأوا منه عكس ذلك تمامًا.

واللقب الذي التصق به واشتهر هو (الأشرم)، بسبب أثر ذلك الشق – أو الجرح – البادي في شفته العليا، والناجم عن إحدى معارك الطفولة، التي لم تكن تتوقف، والبعض كان يناديه بـ (شروم) على سبيل التدليل، ولما ظهرت عدوانيته في صباه بشكل أوضح، وعمت شروره وطغت، زيد عليه اسم (أبرهة)، وهكذا أصبح معروفًا في الحي والأحياء المجاورة باسم (أبرهة الأشرم)، حتى أن البعض نسي اسمه الحقيقي، الذي لا ينادى به قط!

ما زلت أذكره في تلك الأيام صبيًا قصير القامة، لكنه قوي البنية، مستدير الوجه، له شدقان حمراوان منتفخان كطفل رضيع، وعينان غائرتان، وملامح

شرسة مرعبة لمن في سنه، خاصة ذلك الأثر بشفته العليا، الذي جلب عليه لقب (الأشرم)، شكله لم يتغير كثيرًا عما كان، لكنه ازداد شراسة وقبحًا، على أية حال هو لم يستمر طويلًا في الدراسة، وسرعان ما غادر المدرسة بلا عودة، بسبب ضيق الحال من جهة، وبسبب نفوره من التعليم من جهة أخرى، وانقطعت صلتنا بعد ذلك لسنوات طويلة، فلم أعد أراه خلالها إلا مصادفة.

الجدير بالذكر أن (أبرهة) خلال تلك الحقبة لم يفكر في العراك معي قط، ولم يحاول الاعتداء عليّ بأي وجه من الوجوه، على الرغم من أنه لم يسلم منه تلميذ آخر بالمدرسة، حتى الأكبر منه سنًا، بل كان يعاملني برفق واحترام شديدين، ويعتبرني صديقه الأوحد، وإن كنت أنا نفسي لا أبادله هذا الشعور، بل أنفر منه بخوف وتقزز، لكني كنت مضطرًا لمبادلته الاحترام في كل لقاءاتنا!

أذكر ذات مرة أنه قال لي ونحن لا نزال صبيين:-

- "أتدري ما يعجبني فيك يا (مختار)؟ أنك لا تتكلم كثيرًا، أولاد الـ..... لا يكفون عن الكلام، وأنا لا أحب الثرثارين!"

لم أدر حينها هل كان يبرر حبه واحترامه لي أنا، أم يبرر عدوانيته مع الآخرين، وهو كان يعلم جيدًا أني ثرثار، لكن مع الآخرين، وأتحاشى الثرثرة معه هو فقط، وكنت سعيدًا بكلامه هذا على أية حال، فهذا يضمن لي أنني في مأمن منه.

والجدير بالذكر أيضًا أن عدوانيته كانت في البداية قاصرة على المدرسة فحسب، أما بالحي فهو لم يكن سوى صبي يتيم فقير منكسر، يعطف عليه البعض، وينفر منه البعض الآخر كما ينفرون من الكلاب الضالة، لكنه بمرور الوقت ترك المدرسة، ونقل عدوانيته إلى الحي، حتى أصبح مصدر هلع لسكانه جميعًا، بدأ الأمر بالمعارك التي يخوضها يوميًا ضد خصوم يشبهونه، مستعملًا الأسلحة البيضاء، وأبدى في تلك المعارك شجاعة وطاقة كبيرتين، وأبدى أيضًا اقتدارًا

عظيمًا على إسالة دماء الآخرين، ثم تطور الأمر إلى اعتدائه على البسطاء وسلبهم أموالهم! وهكذا تحول (عثمان أبو العلا) إلى بلطجي ولص، وظهرت علامات البلطجة بوضوح في وجهه على هيئة جراح وندوب مختلفة الأطوال والأعماق، وهو ما أهله لدخول السجن عدة مرات، لفترات متفاوتة، فضلًا عن المرات التي كانت الشرطة تأخذه وتفرج عنه سريعًا بعد ساعات أو أيام.

بالطبع كان يتعاطى كل ما يقع في يديه من مخدرات على أي شكل كانت، وبالطبع كانت علاقته سيئة بالجميع، كأي بلطجي آخر يحصل على رزقه بقمع الآخرين، وبالطبع كانوا يحسون بالسعادة الغامرة كلما أخذته الشرطة وذهبت به، وبالضيق والهلع والجزع كلما رجع إلى الحي مجددًا، ويبدو أن الشرطة هي الأخرى سئمت من سجنه مع مرور الوقت فتركته طليقًا فترات طويلة في الأعوام الأخيرة، أو ربما قرروا الاستفادة به بوجوه أخرى غير سجنه، كتوظيفه مرشدًا لهم إلى المجرمين الآخرين، وإن كنت أشك أن يوافق هو على هذا الدور، لأنه شديد الكبرياء والاعتداد بنفسه رغم عدوانيته وإجرامه.

لكني أعرف أن إحدى المرات التي سجن فيها كانت فارقة في حياته، تلك النوبة التي حكى لي تفاصيلها بشغف وفخر، حين أوقعه القدر في عنبر مساجين رفقة بعض المثقفين، ومن خلال أحاديثهم انتبه إلى وجود جوانب أخرى من هذا العالم لا يعرفها، فكان ينصت إليهم بشغف، ومع الوقت تعلم أن يتحدث مثلهم، وأن يكون له رأي وفلسفة في كل ما يحدث من حوله، وأن يعبر عن ذلك الرأي وتلك الفلسفة بأسلوب هادئ رقيق، وأهم شيء تعمله في تلك الحقبة: أن ثمة وسائل أخرى للتعامل مع الآخرين خلاف المدى والسكاكين، وشفرات الحلاقة، والعصيّ الغليظة وزجاجات البنزين والكيروسين التي تزوّد بفتيل قماشي يحولها إلى قنابل مولتوف.

أعتقد أن هذا قلل من عدوانيته وشروره إلى حد ما، لكن ليس تمامًا، فليس من الحكمة أن تعترض على فلسفة (أبرهة) وآرائه، أو حتى تناقشها، لأنه بمجرد أن يفقد أعصابه يتجرد من تلك الفلسفة ولغة الحوار ويعود إلى لغته القديمة ووسائلها التي لا يزال يألفها ويجيد استعمالها.

حين سألني صديقي الكاتب القدير (ناصر الباز) عن بلطجي شرس وعدواني لم أعرف سواه، لم أكن أعلم أنه سيطلب لقاءه ومناقشته في بعض الأمور، وإلا لتظاهرت بالجهل وأخليت مسئوليتي عما يمكن أن يحدث، وتركته يبحث بعيدًا عني، لكن (ناصر الباز) مصمم على إجراء تلك المقابلة بشكل غريب، ويزعم أنه يريد أن يتعرف على نفسية البلطجي من الداخل وطريقة تفكيره، لأنه بصدد كتابة رواية جديدة بطلها ينتمي إلى ذلك العالم، ومستعد لدفع مبلغ من المال مقابل الحصول على بعض الأجوبة!

قلت له إن الأمر خطر جدًا، لكنه قال بابتسامة واسعة إنه يعرف ذلك، وسيكون حريصًا أشد الحرص على عدم استفزاز ذلك البلطجي الشرس، فقط سيحصل على الأجوبة التي يريدها منه، وينقده أجره، وينتهي كل شيء!

بمجرد أن حدثني (ناصر الباز) عن هذا تذكرت على الفور رواية (تلك الأيام) للكاتب البارع (فتحي غانم)، أستاذ التاريخ (سالم عبيد) الذي قرر أن يكتب عن الإرهاب، واستعان بإرهابي قديم خارج من السجن ليحصل على معلوماته منه، هذا هو السبب المعلن، لكن السبب الحقيقي أنه كان يريد تقديم هذا الإرهابي طعمًا لزوجته الشابة التي يعلم أنها تخونه مع آخرين، وأراد أن يعاقبها بتقديم ذلك الإرهابي لها على طبق من ذهب، وهو يتوقع أن هذا سيعود بالوبال عليها، وأنها ستدفع ثمن ذلك، لكن الأمور لم تسر كما أراد بالضبط.

ترى.. هل لـ (ناصر الباز) أغراض أخرى هو الآخر ويخفيها عني؟ وماتكون؟!

الفصل الثاني

لماذا أنا هنا؟

هذه الوجوه الكالحة البائسة، هذه النظرات اليائسة المستسلمة، هذه الحواجب المنعقدة، والأفواه المزمومة، والأنفاس شبه المتقطعة، هذا الحنق المكتوم في الصدور، يكاد يصدر أزيز غليان، كل شيء حولي محبط، كل شيء يدعوني للفرار.. لكن د. (نجيب) مصمم على وجودي، ومصمم على عقد تلك الجلسة السخيفة وسط هؤلاء البائسين المكتئبين! لماذا أنا هنا؟

– "أنت هنا لأنك بحاجة لأن تكون هنا.. يجب أن تختلط بالناس كي لا تؤذي نفسك!"

من قال إني أريد إيذاء نفسي؟

مشكلة الأطباء النفسيين أنهم يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء، يعرفوننا حتى أكثر منا، د. (نجيب) كان زميل دراسة لي منذ الابتدائية حتى الثانوية، لطالما لعبنا معًا، ولطالما ناديناه "يا واد يا (نجيب)"، ولطالما اشتققنا من اسمه أسماء تدليل سخيفة وكنا نستمتع كثيرًا باستفزازه بها، نحو (نوجا)، (نوجي)، (جيبة) ..... إلخ..

كان مجرد صبي مثلنا، يغضب ويمرح، يفرح ويحزن، يبكي ويضحك، يسب ويجامل، يلهث من الإعياء إذا ركض، ونوبخه حين يلعب معنا الكرة ويعجز عن إحراز هدف وهو في مواجهة المرمى، ونختطف منه أغراضه وأدواته ونتقاذفها فيما بيننا وهو يصرخ.. لكنه الآن طبيب نفسي معروف إلى حد ما، ولديه عيادة، وزبائن من مختلف المستويات، ويبدو أنه أصغر مني سنًا بكثير، ربما لن

يصدق أحد أنه من نفس عمري!

لكن هذه ليست مشكلتي الآن.. المشكلة أنه يصر على معاملتي معاملة طبيب لمريض، لا معاملة صديق لصديق طفولته وصباه!! لماذا أنا هنا؟

– "أنت تعاني حالة حادة من الاكتئاب، جعلتك تنعزل عن الناس، وتفضل الوحدة، والعيش مع الهلاوس والخيالات، وترفض الواقع بكامل تفاصيله، أنا أحاول مساعدتك، فساعدني أنت وكف عن التذمر، وثق بي قليلًا!"

كنت لأثق بك أكثر لو أنك عاملتني كصديق لا كطبيب، لأني لا أثق بالأطباء من الأساس، هم مجرد تجار يرتدون معاطف بيضاء، ويستنزفون أموالنا، والمناعة ومقاومة الجسم في غالب الأحوال تتكفل بشفائنا، أعتقد أن معظم المرضى لو تحملوا الألم بضعة أيام سيشفون دون الحاجة لدواء أو طبيب، هذه قناعتي وأرفض حتى أن يجادلني أحد فيها، ساعدني أنت قليلًا وتخل عن الدور الطبيب!!

هذا المصباح الخافت يثيرني بشدة، لم أر في حياتي مصباحًا يتدلى من السقف في وسط الحجرة بهذه الطريقة سوى في التليفزيون، أعتقد أنها كانت موضة قديمة عقب اكتشاف المصباح الكهربائي، الآن – في زماننا هذا – تثبت المصابيح في أعالي الجدران، وفي الأركان، مصباح خافت يتدلى من السقف يليق أكثر بغرفة استجواب، لا بمكان استشفاء كما يدعي د. (نجيب)!

– "يا أخي كف عن التذمر! انس أنك مريض، أنت صديق أحاول مساعدته، ساعدني أنت!"

– "كيف تريدني أن أساعدك؟"

– "مبدئيًا بأن تكف عن التذمر وانتقاد كل شيء، ويستحسن أن تطبق فمك، وتعطل مركز التفكير بنصفك الكروي السليم عن القيام بمهمته، حتى يحين

دورك"

- "دوري؟"

- "نعم.. هؤلاء الذين تراهم من حولك يفتقرون إلى التواصل مع الآخرين، بل ينفرون منه تمامًا، في الصغار نسميه طيف توحد، لكن في الكبار هو مجرد عرض للعديد من العقد والاضطرابات النفسية، أنا أريد أن أشجعهم على التواصل مع بعضهم البعض، تمهيدًا وتوطئة للتواصل مع العالم الخارجي.."

ما زلت لا أفهم! ما المطلوب منا بالضبط؟

- "كل واحد منكم سيحدثنا عن نفسه، لا يهم ماذا سيقول، ولا يهم أن يكون ما سيقوله مهمًا أو معقولًا، فليقل أي شيء، فليهذِ أو يهلوس، أو يغنِّ، أو حتى يرقص، المهم أن يتحدث للآخرين.. مجرد التحدث للآخرين هو المقصد والغاية، وهذا ما ستقوم به أنت أيضًا حين يأتي دورك!"

- "ومن قال إني أريد التحدث إلى أحد؟"

- "هكذا هم أيضًا، لست وحدك، ومع ذلك يظل التحدث للآخرين أفضل علاج لكم جميعًا"

يبدو أنك لا تفهم حالتي جيدًا يا صديقي، أو يا دكتور!

لقد كانت معاناتي دائمًا بسبب: أني كنت أتحدث للآخرين!!

***

ذلك الرأس الكبير المرعب، الذي لا أدري كيف لعنقه المتوسط أن يحمله، تلك الملامح الغليظة الخشنة المرعبة، حتى العينان الرماديتان الواسعتان تبدوان مرعبتين، وأمقت كثيرًا تلك اللحظة حين تنظران تجاهي، وتعبير الكراهية غير المبررة الذي يسطع منهما، علاوة على ذلك الصوت الخشن المنفر الذي ينسل ببطء من بين أسنانه الصفراء الغليظة!

– "اسمع أيها الوغد الصغير: أعرف أنك يتيم، ومظهرك يدعو للشفقة، لكن صدقني: لو أني رأيتك تتحدث مجددًا أثناء شرحي الدرس لن أتردد عن تحطيم رأسك على هذا الجدار! هل تفهمني؟!"

مجرد تلك النظرة الكارهة في عينيه الرماديتين، بالإضافة إلى ذلك الصوت الغليظ الذي ينسل ببطء من بين تلك الأسنان الصفراء الغليظة، كفيلان بتحطيم أعصابي، وملئي بالرعب لفترات طويلة جدًا. الأستاذ (مدني) يمقتني بشدة، بعنف.. لا أدري لماذا يحمل لي كل تلك الكراهية! كنت مجرد تلميذ ضئيل بالمدرسة الإعدادية، أجلس بالمقعد الثالث بجوار أغبى تلميذ على وجه الأرض: (عثمان الأشرم) قبل أن يصبح اسمه (أبرهة)، وكان مستواي متوسطًا – أو فوق متوسط – بأكثر المواد، أما مادة العلوم التي يدرّسها الأستاذ (مدني) فقد كنت أمقتها كما أمقت معلمها، وأمقت اليوم الذي يحتوي على حصة العلوم هذه، وكان مستواي فيها لا يختلف كثيرًا عن مستوى رفيق مقعدي (أبرهة) الذي يلقب بالبغل! وبالتأكيد لم يكن ضعف مستواي في تلك المادة سبب كل تلك الكراهية التي أراها في ملامح ونظرات وصوت الأستاذ (مدني) تجاهي، بل العكس صحيح، تلك الكراهية كانت هي سبب ضعف مستواي الدراسي، كما أن الأستاذ (مدني) لم يكن يبالي بضعف مستواي أو التلاميذ الآخرين، بل كان يتباهى أمامنا بأنه سيقبض راتبه الضئيل في كل الأحوال مهما كان مستوى تلاميذه متأخرًا!

ربما كان يكرهني بسبب ثرثرتي المتواصلة! كل المعلمين كانوا يضيقون بثرثرتي، فقد كنت أنتهز أدنى فرصة لأثرثر مع من حولي من التلاميذ، الأستاذة (كوثر) معلمة الدراسات كانت تصرخ طوال الوقت بطريقة هيستيرية:–

– "(مختاااااااااااار) كف عن الكلام، وإلا طردتك من الفصل!!"

كانت تنفذ تهديدها أحيانًا، لكنها لم تعلم أبدًا أني كنت أحب هذا، وأسعد الأوقات عندي بالمدرسة حين أغادر المدرسة مطرودًا من حصة! الأستاذ (نشأت) معلم الرياضيات الذي لا نفهم منه شيئًا على الإطلاق،

كان يتحدث بشكل أهدأ نوعًا ما:-

- "اسمع يا بني: أنا عادة لا أحفظ سوى أسماء التلاميذ المتفوقين جدًا، أو أسماء التلاميذ المتخلفين جدًا، أمثال رفيقك الذي يجلس بجوارك هذا، ولا أحفظ مطلقًا أسماء المتوسطين، لكني حفظت اسمك جيدًا فقط لأني لم أر في حياتي تلميذًا ثرثارًا مثلك، إن كنت لا تريد أن تسمح شرحي فدع غيرك يسمع وتوقف عن الكلام!"

وبالطبع هو لم يكن يعرف أنه لا أحد بالفصل، ولا حتى بالفصول الأخرى، يرغب مطلقًا في أن يستمع إليه!

إنها تشبه جلسات المدمنين الذين يحاولون الإقلاع عن الإدمان، أعتقد أني رأيت مثل هذا في مسلسل أجنبي لا أذكر اسمه ولا فحواه، كان المدمنون يجتمعون في مكان يشبه الفصل الدراسي، وكل مرة يختار المسئول عن الجلسة شخصًا منهم ليقف في مواجهة الآخرين ويحكي عن نفسه، بغض النظر عن أهمية أو فحوى ما سيحكيه، وأعتقد أنه يساعدهم هذا، من منطلق المثل المعروف عندنا: من ير مصائب الناس أو بلاويهم تهن عليه بلواه، إنهم يستمدون القوة من ضعف بعضهم البعض، كل منهم يقول لنفسه: لست وحدي، لست الضعيف الوحيد ها هنا، لست الوحيد الآثم في حق نفسه وحق أحبته، يوجد آخرون أسوأ مني أو بنفس درجة سوئي، وإن كان ثمة احتمال لنجاحهم في تجاوز هذا، فذات الاحتمال قائم بالنسبة لي!

أتحدث عما رأيته في ذلك المسلسل الأجنبي، لا عما أراه هنا، لأني محال أن أعتقد بأنه ثمة فرصة لنجاح أحد من أصحاب تلك الوجوه الكالحة البائسة التي تحيط بي، إنهم في أسوأ حالات البؤس والتعاسة والانهيار، وليس لديّ أدنى رغبة لأحكي مع أمثال هؤلاء بالمرة. أعتقد أني لو استمعت لأحدهم سأقوم لأنتحر مباشرة، علمًا بأني لم أفكر في الانتحار قط، بعكس ما يبديه صديقي د. (نجيب) من مخاوف حول احتمالية إيذائي نفسي!

– "وماذا عن تلك السيارة التي كادت أن تدهسك وأنت تعبر الطريق السريع؟"

– "كانت مجرد حادثة، كنت أعبر الطريق شاردًا، ولحسن الحظ كان السائق يقظًا"

– "تعبر طريقًا سريعًا لا يرتاده المارة، لتصل إلى الجهة الأخرى حيث لا شيء سوى الصحراء!!"

– "د. (شوقي) طبيب الباطنة أوصاني بممارسة المشي يوميًا، للتغلب على بعض المشاكل الصحية، كان لديّ بعض الدهون المتراكمة فوق القلب!"

– "تختار طريقًا سريعًا يبعد نحو ساعة ونصف عن محل سكنك؟!"

– "هذه أفضل مزاياه، لا أحد سيعرفني هناك، ويضايقني بفضوله وأسئلته!"

– "وماذا عن محاولة إلقاء نفسك من فوق سطح البناية ذلك النهار؟"

– "كنت أريد أن أشم بعض الهواء، وأصابني الدوار قرب الحافة!!"

– "أصابك الدوار وأنت تقف على الحافة بثبات وتفرد ذراعيك كالأجنحة وأنت مغمض عينيك؟!"

– "طبيعي أن أفرد ذراعيّ على الجانبين لأني كنت أبحث عما أستند عليه، وطبيعي أن أغمض عيني لأني أشعر بالدوار، أما وقوفي فوق الحافة فلم أكن أعرف أنها الحافة، لأني كنت مشوشًا للغاية، ولا أرى شيئًا أمامي!"

– "حسنٌ.. أنت هنا لكي نضمن ألا تعبر الطريق مجددًا وأنت شارد الذهن، أو يصيبك الدوار وأنت تقف قرب حافة على ارتفاع يربو على خمسين مترًا.. هذه الجلسات ستفيدك صدقني!"

يبدو أن طبيبي النفسي مصاب بنوع من الوسواس القهري، أو أيًا كان ما يسمونه!

هل تعرف يا صديقي ماذا يحدث عندما تقف على حافة بملء إرادتك، وتتأهب للوثب لأسفل؟

أنت طبيب، وأظنك تعرف الأعراض العضوية والنفسية لكثير من الأمور، لكني أؤكد لك أنك لن تعرف هذا الشعور أبدًا.. أبدًا.. لأنه شعور لا يمكن أن تقرأه في كتاب، وحتى إن قرأته لن تحس به في مكنون نفسك، وستتعامل معه عقليًا كمراحل انفجار البراكين، دون أن تتواجد داخل بركان!

في البدء تنظر للأمام فقط، وتتريث قليلًا قبل أن تخفض بصرك لأسفل، وبالرغم من أنك تتوقع ما ستراه بأسفل إلا أنك ستفاجأ بالمنظر، كل شيء ضئيل كضآلة الحياة، ستكتشف وجود زحام أكثر من اللازم، بل حيوات أكثر من اللازم، وستكتشف مدى ضآلة وحقارة تلك الحيوات!

سيتصاعد الأدرينالين في دمك، وتتسارع نبضات قلبك لتستوعب كمية الأدرينالين تلك، ستتعرق كثيرًا، لأن الجلد سيتولى مسئولية التخلص من الماء بدلًا من الكليتين، لكنك لن تشعر بذاك العرق الغزير الذي يتصبب من جميع أنحاء جسدك!

هل تعلم أنك قد تتثاءب في تلك اللحظة؟ صدقني يحدث هذا، لكنه ليس تثاؤب من يريد النوم، إنه عَرَض مصاحب لسرعة التنفس، وتسارع نبضات القلب، وتشنج العضلات،

لأن جسمك بحاجة إلى تناول كمية كافية من الأكسجين تلائم هذا الموقف.
سوف تتقلص معدتك وأمعاؤك، في حين ينتفض عقلك بالذكريات والخواطر والتساؤلات، سوف تتداخل الأصوات داخل رأسك، منها ما يدعوك للتراجع، ومنها ما يدعوك للمضي قدمًا فيما عزمت عليه، وما سيحدث تاليًا سيكون متوقفًا على من ستكون له الغلبة منهما، إن كانت الأصوات التي تدعو للإقدام هي الأقوى ستشعر معها بشيء من النشوة، النشوة العارمة.
هل تعرف شعور أو مذاق النشوة العارمة حين تمتزج بالتوتر يا صديقي؟ بل يا دكتور؟
لا أظنك تعرف.. لأن الأمر –كما قلت لك – لا يوجد بالكتب، الموجود بالكتب هو شعور من تغلبت الأصوات التي تدعوه للتراجع على الأصوات التي تستحثه للإقدام، وهؤلاء لم يختبروا تلك النشوة اللاذعة، الذين اختبروها هم الذين أقدموا على الأمر، وبالطبع لم يعودوا ليخبروا الآخرين!
الشعور الذي لم أجربه أنا، ومستعد للتنازل عن كل ما أملك مقابل تجربته: هو شعور الإنسان حين يهوي من علٍ، ويستغرق وقتًا في السقوط حتى يرتطم بالأرض.
تلك الثواني أو الدقائق التي يكون فيها بالهواء كيف يشعر؟ بم يشعر؟ هل يشعر؟!
أتمنى بشدة أن أجرب هذا الشعور يا صديقي.. بل يا دكتور! لقد رأيت هذا المشهد في السينما مرارًا، وفي كل مرة يخلب لبي ذاك الشعور بالإثارة والنشوة، لكنها إثارة ونشوة تصيب المتفرج، وأنا أريد أن أختبر تلك المشاعر والانفعالات التي تصيب من يسقط!!
هل تعلم بم أحلم؟ أحلم بأن تأتي الشرطة أو المطافئ بذلك البساط المطاطي،

ويحتشد الناس ليتمسكوا به جيدًا أسفل البناية، لأقفز أنا من علٍ وأهبط على ذلك البساط، دعك من استحالة حدوث تلك الفرضية، وأن تستجيب المطافئ لمطلبي، هذه ليست المشكلة، المشكلة الحقيقية تكمن في أني سأكون على علم بأنهم ينتظرونني بأسفل، وأني سوف أنجو بنسبة كبيرة، وبالتالي سأفتقد ذلك الشعور الذي أبحث عنه! ولن أعثر على ضالتي..

مشكلة لا أجد لها حلًا على الإطلاق!

لكن تلك الرغبة لن تبرح ذهني ووجداني أبدًا.. أبدًا!!

الفصل الثالث

إنها تلك القصة بالذات: (مقايضة)..

لا أتحدث عن المسلسل التليفزيوني الذي تناوله قصتها، فالسيناريست والمخرج أرادا تعبئة حلقات كثيرة من النص الأصلي ليضمنوا أجرًا أعلى، فأضافا إليها أشياء كثيرة من عندهما انحرفت بالرواية عن مضمونها الأصلي، وأفقدتها الكثير من العمق والتأثير!

أنا أتحدث عن الرواية المكتوبة، التي لم يقرأها إلا قليل من المثقفين وهواة القراءة، عن نفسي قرأت كل شيء كتبه (ناصر الباز): كل كلمة، وكل حرفه سطره، حتى المسودات التي آلت إلى قصاصات ممزقة مكدسة في سلة المهملات، أو رماد محترق في مطفأة السجائر، دون أن يطلع عليه أحد سوى كاتبه الذي لم يقنع به، وأنا..

قرأت كل ما كتبه (ناصر الباز)، وأحببت كل ما كتبه (ناصر الباز).. عدا هذه الرواية بالذات! لا أستطيع أن أحدد لماذا كرهتها من الوهلة الأولى، إنني حتى لم أقرأها سوى تلك المرة، ثم لم أعاود النظر إليها قط، وودت لو أنها لحقت بتلك القصاصات الممزقة، أو آلت إلى رماد محترق بتلك المطفأة! لكن لسبب ما كان (ناصر الباز) مقتنعًا بها كثيرًا، لدرجة أنه كتبها مرتين، مرة كقصة قصيرة صدّر بها إحدى مجموعاته القصصية، قبل أن يعيد كتابتها كراوية مطولة بشكل أكثر تفصيلًا وتعقيدًا، تمامًا كما فعل (يحيي الطاهر عبد الله) مع روايته الكئيبة (الطوق والأسورة)، ويبدو لي أن كليهما تأثر بروايته إلى حد تجاوز حدود المعقول!

لا أستطيع أن أتحدث عن عيوب فنية في القصة، أعني قصة (مقايضة)، أو عن اختلال في رسم الشخصيات، أو في سياق الأحداث.. لا.. لم يكن فيها شيء من هذا على الإطلاق! بل كانت قصة شديدة الإحكام، مسبوكة بعناية بالغة، وقد بلغ فيها الكاتب (ناصر الباز) من الحنكة والاحترافية ما لم يبلغه في كثير من القصص التي كتبها قبل وبعد.. لقد كتب (ناصر الباز) هذه القصة قبل عشرين عامًا مضت، وكانت تحكي عن شخص وحيد يائس محبط، اكتشف فجأة أنه أفنى عمره دون أن يحقق أي شيء لنفسه أو للآخرين، حاول الانتحار مرارًا، لكنه في كل مرة كان يجبن عنه، وفي النهاية التقى بصديق له يعاني الفشل الكلوي، ويحتاج إلى كُلْيَة بصفة ضرورية ومُلحّة، فقايضه على التنازل له عن كليته – أو حتى الكليتين معًا – مقابل أن يقوم هذا الصديق بقتله!

قصة مقبضة جدًا، لم أتعاطف فيها مع البطل بقدر ما تعاطفت مع الصديق الذي وجد نفسه مخيرًا بين الاستمرار في مكابدة المرض والعيش تحت تهديد الموت، ووطأة الفقر المدقع، واحتياجه المستمر لإحسان الآخرين، وبين ارتكاب جريمة قتل يرغب فيها القتيل نفسه، ويضغط عليه ويساومه من أجلها! موقف عصيب جدًا.. جدًا.. ولم أكن أعرف حتى وقت قريب لو كنت مكان هذا الصديق كيف كنت سأتصرف!

أعتقد أن سبب كراهيتي لهذه القصة أني اعتدت أن أندمج في أقاصيص (ناصر الباز) بكل كياني، وأتقمص شخصيات أبطالها، وقد تقمصت هذه المرة شخصية الصديق المريض، الذي يجد نفسه يُدفَع دفعًا باتجاه ارتكاب جريمة قتل مقابل أن يحيا هو، كان مخيرًا بين حياته وحياة شخص آخر، بل حياته مقابل موت شخص آخر على يديه، وبالتأكيد ما كنت لأتحملالوقوف أمام هذا الخيار!

أستعيد مرة أخرى تفاصيل هذه القصة، فيقشعر بدني من مجرد تذكر أي جزء من سرده إياها، وما زلت إلى اليوم لا أدري أي شيطان أوحى لـ (ناصر الباز) بهذه الفكرة القاتمة المقيتة! وما زلت أيضًا أتمنى لو أنها آلت إلى قصاصات ممزقة مكدسة في سلة المهملات، أو رماد محترق في مطفأة السجائر!!

***

#اقتباس

(حاول (محمود) أن يتذكر متى كانت آخر مرة يرى فيها (هشام المنياوي) مبتسمًا متفائلاً واثقًا من نفسه كما يراه الآن، إنه حتى لأول مرة يراه أنيقًا مهندم الثياب كأنه في طريقه إلى حفل بالأوبرا، اكتشف أنه لم يره كذلك على الإطلاق منذ تعرفه قبل سنوات عديدة مضت.

لكن مع ذلك لم تكن هيئة (هشام المنياوي) وحدها ما أثار دهشته وتساؤلاته، بل كانت تلك النظرة التي تطل من عينيه، وتلك الابتسامة الواثقة المرتسمة على شفتيه، علاوة على نبرة صوته العميقة الواثقة التي يتحدث، كل شيء كان غريبًا ومثيرًا للحيرة، وربما القلق في نفس (محمود)، في الوقت الذي استطرد فيه (هشام) بإغراء:-

- "أنت فقط بحاجة إلى كُلية سليمة، فقط كلية واحدة، ستنهي معاناتك من جميع الجوانب، ستوقف جلسات الغسيل التي لم تعد محتملة، وتوقف ما تنفقه عليها من دخلك المحدود، وتوقف احتياجك الدائم للاقتراض والصدقات من الآخرين، وتستعيد عافيتك، وتتمكن من مزاولة عملك، وعمل آخر معه لزيادة دخلك، وتستعيد كبرياءك، وتتخلص من نظرات الشفقة والشماتة في أعين الآخرين. فقط كلية واحدة، وأنا أعرض عليك تلك الكلية، أو حتى الكليتين معًا، لا يهم. وبمقابل بسيط جدًا لن يكلفك شيئًا على الإطلاق."

كان (محمود) في قمة الإعياء، وكان ذهنه أكثر إنهاكًا من بدنه، وكان يجد صعوبة حقيقية في استيعاب كلام (هشام)، فقط يعرف أنه يعرض عليه الحياة.. الصحة.. العافية.. الستر.. وإنهاء معاناته من كل الجوانب، مقابل تقديم شيء ما له، ما هذا الشيء يا ترى؟!

مال (هشام) بوجهه إلى الأمام، وحدق في عيني (محمود) مباشرة، قبل أن يقول بطريقة جامدة مخيفة رغم الابتسامة التي ترتسم على شفتيه:-

- "في المقابل أريدك أن..... تقتلني..")

من قصة: (مقايضة) – للكاتب: (ناصر الباز)

يقولون: إن عائلة (الباز) كانت واحدة من أثرى وأعرق العائلات في ذلك الريف البعيد.

ويقال أيضًا: إنهم قاموا بدور وطني رائع للغاية في فترة الاحتلال البريطاني لمصر، وكان منهم فدائيون أذاقوا الإنجليز طعم الموت والألم، وأنهم ساندوا ثورة الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢م، وقاموا بدور بطولي فيها..

قيل عنهم الكثير والكثير، وكل ما قيل عنهم مشرف ويبعث على الفخر والاعتزاز.. إلا أن (ناصر الباز) سليل العائلة العريقة، وأشهر فرد فيها حاليًا، كان له رأي آخر، إذ قال لي يومًا، ولم يقل هذا لأحد غيري:-

- "بل كانوا خدمًا وأعوانًا وحراسًا للإقطاعيين، وعندما حدث انقلاب الثالث والعشرين من يوليو، وصدرت قوانين الإصلاح الزراعي تباعًا، أراد الإقطاعيون الاحتفاظ بأراضيهم وثرواتهم في أيدي آخرين، ولم يعثروا على أحد يثقوا به مثل عائلتي، فمنحوهم الكثير والكثير، على أن يستردوه منهم حين تنصلح الأمور، بالنهاية لم ينجحوا في استرداد كل شيء، فقد استطاعت عائلتي أن تغير جلدها وتساند السلطات الجديدة، وتحتفظ بجزء كبير مما حصلوا عليه، لكنهم استطاعوا

باقتدار أن يزوروا تاريخًا عريقًا ومشرفًا لهم، تتناقله الأجيال الجديدة وتصدقه."

هذا ما قاله لي (ناصر الباز) ولم يقله لأحد سواي، وعرفت منه أيضًا أن والده الحاج (توفيق الباز) كان أقل أفراد العائلة ثراء، إلا أنه كان أكثرهم هيبة واحترامًا، فقد كان ينفق أمواله على مآدب الكرم، ويفتح داره لكل محتاج، تزوج العديد من النساء، وأنجب عددًا يصعب إحصاؤه من الأولاد، من ذكور وإناث، كلهم صاروا فلاحين وفلاحات في أراضي عائلتهم الشاسعة، باستثناء واحد فقط منهم أفلح في التعليم، واختار لنفسه سبيلًا آخر سوى الفِلاحة، وسوى الريف ككل.. طبعًا تعرفون من هو! إنه الكاتب الكبير (ناصر الباز)..

في أحاديثنا الطويلة أكد لي مرارًا أنه حمل الفأس وأمسك بالمنجل مئات المرات، وأنه حرث وبذر وسقى وحصد عشرات المرات، وأنه نام بين البهائم، وتحت النخيل، وبجوار قنوات الزرع مرات ومرات، طبعًا لا أكذبه فيما أخبر، وإن كان لا يبدو عليه ذلك بالمرة. فقد كان لا يبدو إلا كرجل مثقف شديد الرفاهية.

لقد ظل (ناصر الباز) دائمًا ذلك الصبي الانطوائي الخجول، الذي لا يشارك الأولاد لعبهم ومرحهم وشقاوتهم، لم يقذف حجرًا على نخلة كي تسقط عليه بعض البلح، ولم يحاول أن يتسلق شجرة لأحد الجيران كي يسلب بضع ثمرات البرتقال، ولم يتسلل يومًا إلى مبنى الطاحونة الخرب ليدخن سيجارة أو يتجرع زجاجة بيرة في الخفاء، ولم يتوعده والده يومًا بالضرب إذا عرف أنه اغتسل في ترعة أو مصرف وقت القيلولة، أو ذهب للعب بجوار شريط القطار، ولم يسهر في عرس لوقت متأخر ورجع ليجد باب الدار مغلقًا من الداخل، لينام على عتبته حتى الصباح!!

باختصار لم يكن يفعل أي شيء مما يفعله أبناء ذلك الريف الطبيعيين، غير أنه كان متفوقًا في دراسته بشكل نال إعجاب كافة معلميه، وحسد كافة زملائه،

كان يبدو كما لو أنه خلق فقط ليتعلم، وكان الجميع طيلة المرحلة الابتدائية والإعدادية يتعاملون معه كظاهرة مبشرة، والجميع كان يتوقع أنه سيصبح ذات يوم طبيبًا أو مهندسًا، أو سياسيًا يشغل منصبًا مرموقًا، وقليل من تنبأ بأنه سيكون كاتبًا، لأن ميوله كانت علمية بالدرجة الأولى.

كان مجرد صبي نحيل قصير القامة، شاحب الوجه، يتوقع كل من يراه أن لديه أنيميا حادة، وديدان معوية مختلفة الأنواع والأحجام، وبالتأكيد كان صيدًا سهلًا لكل صبي متنمر في صفه، لكن مع ذلك كان المتنمرون يحجمون عن التعرض له، لأن وراء نحوله وشحوبه سببًا غامضًا وخفيًا دعاهم لاحترامه، والكف عن إيذائه، دون أن يعرف أحد هذا السبب، وبالتأكيد لم يكن تفوقه الدراسي هو ذلك السبب، بل كان هذا أدعى لإثارة أحقادهم وحفيظتهم، ودفعهم دفعًا للتنمر عليه، لكن هذا لم يحدث لسبب —كم قلت — غامض خفيّ!

في المرحلة الثانوية حدث تراجع غير مبرر في مستواه، فجأة لم يعد ذلك الطالب النابغة العبقري المتفوق في جميع المواد، وتخطاه كثير من زملائه الأقل منه ذكاء ونبوغًا، بعض الناس عزا هذا التراجع إلى وفاة والده بعد إصابته بجلطة مفاجئة في الدماغ، بينما اعتقد آخرون إن البلوغ والمراهقة كانا وراء هذا التراجع، وإن لم يكن ثمة أثر لهذا البلوغ وتلك المراهقة على سلوكه، فلم يضبطه أحد يكتب خطابًا غراميًا لإحدى زميلاته في الصف ويلقيه في درج طاولتها، أو ينظر بهيام وشرود إلى معلمة فاتنة تلقي عليهم درسًا في الفيزياء، أو اللغة الفرنسية، ولم يلمحه أحد يختلس النظر برغبة واشتهاء لإحدى جاراته الفاتنات وهو يداعب قضيبه.. ولم يعثر أحدهم على صورة إباحية بحقيبته، أو صورة لممثلة حسناء معلقة على جدار غرفته إن كان له غرفة مستقلة من الأساس.

لم يضبط عليه أحد من الناس أي شيء من هذا على الإطلاق.. لكن مع ذلك كان مستواه يتراجع على الدوام، ويزداد صمتًا وعزلة عن الناس مع الوقت، حتى نجح بمجموع متوسط بالكاد أتاح له دخول كلية دار العلوم، ليغادر ذلك الريف الهادئ، وينتقل إلى السكنى بالقاهرة الصاخبة، ويواجه هذا الضجيج الذي لا ينقطع!

لكنه في تلك الفترة التي شهدت تراجع مستواه الدراسي كان قد عرف عالم (نجيب محفوظ) و(إحسان عبد القدوس)، قبل أن ينحاز إلى عالم (يوسف إدريس)، ويتوغل فيه أكثر، ربما لأنه ريفي مثله، وغالب قصصه تدور في الأرياف، حتى لكأن (ناصر الباز) رأى تلك القصص والحكايا في واقعه بعيني رأسه، أو لأنه وجد لغة وسمت (إدريس) يناسب موهبته التي لم يكن أحد يعرف عنها شيئًا في ذلك الوقت، المهم أنه تأثر به، وبدأ يكتب ويراسل المجلات، التي تلقى بعضها كتاباته بشيء من الترحاب لأنها كانت جيدة فعلاً، لكنه لم يكتسب جمهورًا يناسب تلك الجودة.

كان ذلك في منتصف الثمانينات، حيث الأوضاع السياسية والاقتصادية تتغير بسرعة مهولة، ثمة سلطة جديدة أحكمت قبضتها على البلاد، وإن كانت لا تختلف كثيرًا عن السلطة السابقة، وحرب على التطرف والإرهاب قائمة على أشدها، وآمال تنعقد، وآمال أخرى تتهاوى، لكن ذلك الطالب الجامعي الريفي كان منعزلًا عن كل هذا، كان لا يفعل شيئًا سوى الدراسة والكتابة، انغمس في قراءة المعلقات وشعر النقائض والمولدين، وهام مع البيان والبديع والمعاني، وكانت له محاولات – رآها هو غير موفقة وغير ناجحة – في كتابة الشعر، وهو الشيء الذي لم يعرفه سواه، لأنه لا أحد اطلع على شيء مما كتبه وقتها، وقرر بمفرده الاقتصار على كتابة القصة النثرية القصيرة والطويلة، وبعد التخرج سعى

للعثور على عمل بجريدة ما، في القسم الأدبي طبعًا، وكان له ما أراد، وتمكن من نشر أول رواية له، ولاقت بعض النجاح في نطاق ضيق، لكنه كان يكتب لنفسه أكثر مما يخاطب الجمهور القليل الذي بدأ ينتبه لاسمه وأدبه..

مع مرور الوقت بدأ اسمه يتردد في الصالونات والمنتديات الأدبية ككاتب روائي وقصاص صاعد وواعد يعيد مجد الستينيات الأدبي، وتوالت قصصه في النشر تباعًا، وبدأ يظهر في بعض المقابلات المتلفزة، في تلك البرامج التي لا يتابعها إلا عدد قليل جدًا من الناس، لكنه نشط أكثر في الندوات الأدبية التي تعقد له ككاتب أو كناقد لغيره من الكتاب، بعض قصصه تحولت إلى أفلام ومسلسلات درامية وحققت بعض النجاح، لكن للأسف كان هذا النجاح يحظى به الممثلون والمخرجون دونه هو، بينما هو يبدو كما لو كان لا يبالي بذلك، فاز بإحدى جوائز الدولة التشجيعية، وقت أن كانت تلك الجوائز تمنح للموهوبين حقًا، واستطاع بذلك أن يحقق شهرة لا بأس بها على الأقل في الأوساط الأدبية والثقافية.

كان موهبة (ناصر الباز) – بلا شك – تؤهله للوصول إلى مكانة أعلى من ذلك بكثير، وكان بإمكانه أن يحقق ما هو أعلى من ذلك لو أنه كان يجيد التملق والسباحة مع التيار، والالتصاق بذوي النفوذ، إلا أنه – وبكل أسف – لم يكن يجيد سوى الكتابة فحسب، وفاشل للغاية في تسويق نفسه.

لقد عرفت (ناصر الباز) في المرحلة الوسطى من حياته الإبداعية، ولازمته طيلة تلك السنين، وكنت آخر من رآه وهو على قيد الحياة، باختصار: لقد دخلت عالم (ناصر الباز) من أوسع الأبواب، وصار لي منزلة شديدة الأهمية والخصوصية به، وأعترف بأني استفدت من ولوجي هذا العالم أكثر مما استفاد مني هو، فقد نقلني من مستوى مادي وضيع للغاية إلى مستوى متوسط، وتحولت من كاتب

آلة كاتبة ينكفئ طوال اليوم على الآلة مصدرًا تلك الطقطقات الشبيهة بطقطقات الرصاص إلى صاحب مكتب ومكتبة كبيرين للطباعة، ثم صاحب مطبعة، ومن خلاله أيضًا كونت صداقات مع أشخاص مهمين بالدوائر الثقافية، في الواقع لقد منحنى (ناصر الباز) مكانة خاصة ما كنت أحلم بها، حيث ألحقني بالوسط الذي يعيش به، وكان يصحبني دائمًا في تلك الاجتماعات والجلسات والصالونات التي يحضرها المحترمون، ويقدمني لهم باعتباري صديقه، وكان يطلعني على كل خطوة ينوي القيام بها في حياته العملية أو الشخصية، ويستشيرني في كل شيء، حتى لكأني سكرتيره الخاص! وفوق ذلك كان يساعدني في مشاكلي وأزماتي، وما أكثرها! وذلل لي الكثير من الصعاب التي واجهتها. لذلك أعتبر نفسي دائما مدينًا له، وسأظل أعتبرني كذلك ما حييت.

كنت معه في كل خطوة خطاها، كنت معه حين تزوج وأنجب طفلته الوحيدة، وكنت معه أيضًا حين أصرت زوجته على الانفصال عنه، ورحلت بطفلته لتسكن بيتًا آخر، وتعيش مع رجل آخر، وفاز هذا الرجل الآخر بكلمة (بابا) من الطفلة، دون والدها الحقيقي.

كنت معه وهو يتألم.. وهو يبكي..

كنت معه وهو يتظاهر بالثبات.. وهو يتظاهر بالفرح حين يلقى الثناء!

كنت معه حين ينتهي من قصة ما، بينما هو نسي مذاق الفرح منذ ذهبت زوجته التي أحبها من صميم قلبه.

كنتُ معه وهو يبكي، ويتلوى، ويتمزق، ويغشى عليه!

وكنت معه حتى وهو راقد بالمشفى محاطًا بالجبس والضمادات والأجهزة الطبية ذات الذبذبات والإشارات، وظللت معه حتى تلك الليلة الأخيرة!

الفصـــل الـــرابع

كانت ترتعد بشدة، وبطريقة تبدو غريبة على فتاة نحيلة شاحبة مثلها، حتى أصابعها كانت ترتعد وهي تمد يدها لتتحسس النظارة الطبية السميكة التي تضعها على وجهها الشاحب النحيل، وحتى صوتها خرج مرتعدًا من فمها وهي تقول:-

- "حقيقة.. لا أعـ... ـرف ماذا أقو... أقول! لقدد فاجأني د. (نجيب) ببب.. ـهذا الـ... أمر!"

وكانت تلهث كأنها تخوض سباقًا ما!

أعتقد أني أفهم ما تعانيه، أنا نفسي أرتعد كلما فكرت في تلك اللحظة التي يحين فيها دوري لأتحدث إلى هؤلاء الجالسين، ذوي الوجوه الكالحة!

أتأمل تلك الوجوه، إنهم ثمانية أشخاص، لنقل سبعة إذا استبعدنا د. (نجيب) صديقي الذي يراقب الجميع بعيون صقر، ويبدو متحفزًا للغاية رغم قناع الجمود الذي يضعه على ملامح وجهه، سبعة من أعمار مختلفة، أعتقد أن واحدًا فقط يكبرني في العمر، والآخرون أصغر سنًا، هذه الفتاة النحيلة الشاحبة أصغر الموجودين، إنها شابة عشرينية، وربما لم تبلغ العشرين بعد، ثمة امرأة أخرى بدينة، أعتقد أنها أربعينية ذات شعر قصير مجعد، لا تعتني به جيدًا، ولا تعتني بمظهرها عمومًا، حتى أنها لا تضع مساحيق زينة، سوى أحمر شفاه خفيف، بالرغم من أن ملامحها لا بأس بها من الناحية الجمالية، الباقون كلهم رجال من أعمار مختلفة، هناك رجل أشيب الرأس كليًا، ووجهه المجعد يوحي بأنه تجاوز الستين، هو الوحيد الذي يكبرني سنًا، ومع ذلك تبدو صحته جيدة أفضل من صحتي

بكثير، على الأقل لا يسعل ولا يبصق البلغم من فمه كما يفعل العجائز، هناك رجل أربعيني آخر، أشيب الفودين، يرتدي نظارة طبية أنيقة، وهو وسيم وأنيق للغاية..! هناك أيضًا ...!

لا. لا يهم من أيضًا هناك!

– "لنبدأ أولًا بتعريف نفسك للحاضرين، ثم قولي بعد ذلك أي شيء يخطر ببالك، حتى لو بدا لك تافهًا، لا تتحرجي من ذلك!"

إنه د. (نجيب) صديقي يضع قواعد اللعبة، هل هي حقًا لعبة؟ بالنسبة لي تبدو كذلك، لعبة سمجة للغاية ومربكة! لكن كلماته أفادت البنت النحيلة الشاحبة على أية حال، فقد أعطاها بعض التماسك، وحاولت أن تبتسم وهي تقول بتودد:–

– "هاااي.. أنا (ياسمين)، مممم.. أربع وعشرون سنة، مممم.. تخرجت في كلية التجارة، مممممم.. أنا .....!"

توقفت للبحث عن أي كلام يقال! ثم تبسمت مجددًا وقالت بمرح مصطنع:–

– "أنا أعشق الإنمي، أقضي كل وقتي في مشاهدة أفلام ومسلسلات الإنمي اليابانية، كنت أوتاكو، لكني مع الوقت أصبحت ويابوو.!"

ثم ضحكت في طرب، بينما نحن ننظر إليها بجهل وغباء، لا ندري عما تتحدث، قبل أن يتطوع أحد الجالسين ويقول موضحًا:–

– "الأوتاكو هم عشاق الإنمي، أو مدمنو الإنمي، أما الويابوو فهم الأكثر تطرفًا في التعلق بالإنمي، إنهم يعشقون الإنمي بشكل مَرَضي!"

بدا السرور والامتنان على الجالسين – وأنا منهم – لأنه أزاح عن كاهلنا عبء فهم ما تقول تلك الفتاة النحيلة الشاحبة، لكن د. (نجيب) انقض كالصقر مخاطبًا ذلك الشخص الذي قام بالتفسير:–

- "من فضلك يا سيد (أسامة)، لا تقاطع من يتحدث، في هذه المرحلة علينا أن نصغي فقط، وبعد أن يفرغ المتحدث من حديثه سنناقش جميعًا ما قاله، لا أريد أن نربك المتحدث بأية ملاحظات أو تعقيبات أثناء حديثه"

فهمت، هو أيضًا يشعر بصعوبة الموقف على المتحدث، ولهذا يريده أن يستغرق في الحديث دون أدنى مقاطعة، حتى لا يزيد من صعوبة الأمر عليه، وفي نفس الوقت سيمنحنا الفرصة لتبادل الأحاديث والتواصل فيما بيننا حسب خطته بعد انتهاء المتحدث مما يقول!

المشكلة الآن: أني سأكون مضطرًا للإنصات إلى هذا الهراء حتى ينتهي!

- "أستطيع أن أقول: إني وجدت نفسي في عالم الإنمي، لدرجة أني أعتبر نفسي منتمية إلى الإنمي بكل كياني!"

الآن أصبح الحماس باديًا في صوتها بكل وضوح، لقد بدأت تتخلص من ارتباكها، وتكتسب الثقة، أنا الذي أفقد حماسي ورغبتي في مواصلة الاستماع إلى هذا الهراء..

- "ثمة فيلم اسمه (Your name) أعشقه كثيرًا، لدرجة أني أبكي فيه بدموعي في كل مرة أشاهده فيها، إنه شديد الرومانسية والمأساوية، يحكي عن " توقفت بغتة ونظرت إلى د. (نجيب) كأنها تستفسر هل يحق لها سرد قصة الفيلم، أم أنه غير مسموح بهذا، لكن د. (نجيب) أومأ لها بمعنى أنه لا مانع، لكنها استطردت:-

- "لا يهم.. المهم أنني مهووسة بالإنمي، ويزعجني أن بعض الناس ينظرون إليه باعتباره كارتون للأطفال، لكنه ليس كذلك، إنه يشبه السينما العادية غير أن أبطاله ليسوا ناسًا مثلنا من لحم ودم، بل رسومات متحركة، إلا أنه ليس كارتونًا، الإنمي يختلف عن الكارتون، وأفلام الإنمي تحمل من الإثارة والمتعة والعمق ما

يفوق حتى الأفلام السينمائية العادية، وقد انتشرت انتشارًا كبيرًا عبر أنحاء العالم، ويشاهدها الجميع من مختلف الأعمار، ويستمتعون بها، وهي بالفعل تستحق هذا الانتشار.."

توقفت لحظة لتلتقط أنفاسها، ثم أضافت بنبرة حزينة:-

- "لكن أهلي يعاملونني باعتباري مريضة، وهم الذين أصروا على عرضي على د. (نجيب)، هذا غير عادل بالمرة، أخي الأصغر مهووس بالكرة هو الآخر، ويشجع النادي الأهلي بجنون، ويقضي أغلب أوقاته في متابعة مباريات الكرة أمام التلفاز، أو على الجوال، أو على المقهى، وبالرغم من ذلك لا ينظرون إليه باعتباره مريضًا مثلما ينظرون إليه، ولم يفكروا في عرضه على طبيب مثلما فعلوا بي، لا أدري حقيقة هل المشكلة بي أنا، أم مشكلتهم مع الإنمي!!"

دمعت عيناها بغرابة وهي تقول الجملة الأخيرة.. في الحقيقة أنا الذي لا أعرف: هل مشكلتها في معاملة أهلها لها، أم في نظرتهم إلى الإنمي!

قالت وهي تمسح دموعها من تحت النظارة، وهي تحاول الضحك:-

- "حسنٌ.. لقد انتهيت!"

فوجئت بالحاضرين يصفقون لها، لا أعتقد أنها تعليمات د. (نجيب)، لأنه لم يطلب هذا مني، إنهم يحاولون دعمها من تلقاء أنفسهم، في اعتقادي هم يدعمون أنفسهم، لأن كل منهم سيحين دوره وسيحتاج إلى مثل هذا الدعم فهو يقدمه للآخرين استباقًا بانتظار أن يحصل عليه منهم في المقابل..

أعتقد أيضًا أن هذه الفتاة أعطتهم جميعًا الثقة، دائمًا الدور الأول هو الأصعب، لأنه يكون في مواجهة فوهة المدفع مباشرة، إذا مر الدور الأول بسلام سيتشجع الباقون، وها قد مر الدور الأول بسلام!

قالت تلك المرأة الأربعينية البدينية:-

- "المشكلة أنك أنثى، هذا كل ما في الأمر، لقد اتفقت ثقافة مجتمعنا على أن الذكر يحق له فعل كل شيء، وأي سلوك يصدر منه مقبول، حتى لو كان سلوكًا خاطئًا ومنحرفًا، ويبررون موقفهم بأن الأنثى تحتاج إلى رعاية أشد، بينما هم في الحقيقة يخنقونها ويحرمونها أبسط حقوقها.."

يالها من نظرة ناقمة على المجتمع، من الجيد أنها لم تقل: مجتمع ذكوري متزمت!

رد أحد الجالسين:-

- "لا أعتقد أن الأمر كذلك.. في الواقع مشكلة أسرتك ليست مع الإنمي، ولا مع كونك أنثى، بل مع الانطوائية والعزلة، أنت تقضين أغلب وقتك في غرفتك في صحبة الإنمي، منعزلة تمامًا عن العالم الخارجي، بعكس أخيك الذي يشارك أصدقاءه اهتماماته، ويجالسهم على المقاهي كما قلت بنفسك، أعتقد أن موقف أسرتك منطقي ومعقول!"

بالطبع لم يعجب هذا الحديث تلك المرأة البدينة، فانقضت تدافع عن وجهة نظرها، وتدخل الآخرون، واحتدم النقاش، بينما أنا أرمق كل هذا بسأم، غير مكترث بأي شيء مما يقال، وتثاءبتُ مرارًا بانتظار انتهاء تلك الجلسة السخيفة، ولم أنتبه إلا وصديقي د. (نجيب) يلكزني في كتفي متسائلًا:-

- "وأنت ما رأيك؟"

- "هه؟!"

قال مستحثًا:-

- "ما رأيك فيما سمعت من الآنسة (ياسمين)؟"

(ياسمين) من؟!

آه.. فتاة الإنمي، تلك النحيلة الشاحبة ذات النظارة السميكة السخيفة، لماذا يطلب رأيي في هذا؟ أليس هو من طالبني بإطباق فمي حتى يحين دوري؟

لكن البعض الجالسين شاركوه دعوتي للإدلاء برأيي، وقال أحدهم مغريًا إياي:-

- "حتمًا لديك رأي متبصر في المسألة"

رأي متبصر؟ ومتى كان لي رأي متبصر في أي شيء طيلة حياتي؟

على أية حال رأيي لن يعجبكم أيها الحمقى، لأني أرى أن هذه فتاة بلهاء، وهي مريضة بالفعل، مريضة بالسخف والتفاهة قبل العزلة والانطواء، فتاة في هذا السن يفترض أن تلبس وتتأنق وتتزين، وتختلق أسبابًا للخروج من الدار حتى تصطاد عريسًا، أو تقضي وقتها على فيسبوك تمازح هذا، وتحادث ذاك، وتقضي وقتها بين الضحك والمرح، بدلًا من أن تدفن نفسها بين الرسوم المتحركة، والبكاء على قصصها السخيفة، ولو كان أهلها أكثر تعقلًا لأودعوها في مصحة عقلية بدلًا من الاكتفاء بعرضها على طبيب نفسي!

هذا هو رأيي الذي لن أقوله، ولا تحاولوا الضغط عليّ لأن أقوله، لأني أرى أيضًا أنكم مجموعة من البلهاء الذين تهتمون بالإنصات لهذا السخف، ثم تناقشونه بجدية وحماسة، هل هذا ما تودون سماعه مني حقًا؟

- "أرى أن كل إنسان يحق له أن يشبع هواياته على النحو الذي يريد، ويمارس اهتماماته كما شاء، لكن بشيء من الاعتدال"

هكذا تحدثت بكياسة، ثم استطردت:-

- "من حق الأخت (ياسمين) أن تشاهد الإنمي، لكن دون إفراط، المشكلة دائمًا في الإفراط، لأنه يأتي على حساب أشياء أخرى دائمًا!"

بدا عليهم جميعًا الإعجاب بما قلت، بينما اكتفى صديقي د. (نجيب) بالتحديق في عينيّ بجمود، أعتقد أنه يقول في سره الآن:-

- "يا لك من وغد مدّعٍ، من أين جئت بهذه الكياسة؟ أنا الوحيد الذي أعرفك على حقيقتك ها هنا!!"

لكنه أشاح بوجهه عني، ونظر إلى الفتاة قائلًا:-

- "أنا أؤيد صديقنا (مختار)، المشكلة دائمًا في الإفراط، جربي أن يكون لك أصدقاء، أصدقاء في الواقع، وعبر مواقع التواصل الاجتماعي، يمكنك اكتسابهم بسهولة، أنت جميلة وذكية ولبقة، رتبي لنفسك جدولًا زمنيًا بشكل يومي، امنحيهم بضع ساعات من وقتك، ولتكن مساوية لساعات مشاهدة الإنمي، هذا طبعًا بجانب اعتنائك بالتواصل مع أسرتك، لديك أب وأم وإخوة، أنت الكبرى، ينبغي أن يكون لك دور أكبر في حياتهم، إنهم يعتمدون عليك صدقيني، بإمكانك دعمهم وإرشادهم إلى الطريق الصحيح، وتجنيبهم العديد من المآزق والمشكلات.. لا تخذليهم!"

أومأت الفتاة برأسها في تأييد، وعادت الدموع لتنساب من عينيها، بينما توالت عبارات الإشادة بنصيحة د. (نجيب) من بقية الحضور..

أما أنا فقد تساءلت في سري: من منا الوغد المدعي الآن؟!

***

الفصـــل الخامس

يقولون: إن أجمل وأثمن أشعة الضوء، وأكثرها سطوعًا، هو ذلك الشعاع الذي يضيء داخل نفق مظلم! أجزم بأنهم على حق، وأجزم كذلك بأنها هي شعاع الضوء الأجمل والأثمن والأكثر سطوعًا في حياتي كلها، رغم أن هذا الشعاع لم يسطع إلا لدقائق معدودة، ثم اختفى للأبد!

لقد ولدت داخل نفق مظلم، حالك السواد، وحين وعيت على الدنيا كان أول ما تبينته وسط هذا الظلام الدامس امرأة شاحبة نحيلة، ترتدي السواد على زوجها الذي رحل باكرًا، وترك لها ثلاث بنات صغيرات نحيلات كالأفراخ، ورضيع ذكر لا يكف عن العواء، لتتحمل هي وحدها عبء تربيتهم والإنفاق عليهم، والسعي المضني وراء الرزق بكل السبل المتاحة.

نشأ هذا الرضيع الباكي وسط هذا الفقر المدقع صبيًا نحيلًا يائسًا متوجسًا، يخشى الناس لأنه بلا سند، لكنه مع ذلك مطالب بالتعامل معهم ليساعد أمه في كسب الرزق، هذا الفقر المدقع لم يكن بالنسبة لنا مجرد رفيق ملازم، بل كان يمثل جميع أركان حياتنا، كنا نأكل الفقر ونشربه، ونلبسه ونركبه، ونفرشه ونلتحفه، ونزرعه ونحصده، ونستعمله ضمادًا لجراحنا التي أحدثها فينا الزمان!

عملت في الحوانيت الصغيرة، والمتاجر، بعت المناديل الورقية في إشارات المرور، وزعت الجرائد والألبان والعطور الرخيصة على البيوت والمقاهي، تمرغت في ورش النجارة والميكانيكا، حتى استقر بي الحال – وأنا طالب بالمدرسة الثانوية – في دكان آلة كاتبة يملكه جار لنا يعمل مدرسًا بذات المدرسة، وهو الذي علمني

كيف أكتب على الآلة الكاتبة والتعايش مع صوت الطقطقة.

لم تكن مهنة مريحة ولا مربحة، بل كانت مرهقة للعينين والعمود الفقاري، وفقرات العنق، لكنها فتحت لي مجالًا واسعًا لرؤية العالم من زاوية منفرجة للغاية، لقد كان أكثر زبائننا من الباحثين والكتاب والشعراء المغمورين، وفيهم الكثير من أصحاب الفكر والموهبة الحقيقيين، وكانوا جميعًا يسعون إلى فرصة قلما تجيء، وكنت أكتب كل ما تجود به قرائحهم، وأطلع – وأنا قابع في مكاني – على عوالم أخرى لم أطأها في الواقع، وأسافر من خلال أحرفهم عبر الزمان والمكان إلى أبعد الآفاق، لذا أعترف بكل صدق: أني أحببت هذه المهنة كثيرًا، رغم قلة العائد المادي من ورائها.

أحببتها فقط لأنها فتحت لي ثقبًا ضيقًا يطل على العالم الخارجي، وأنا لم أزل قابعًا في مكاني بذلك النفق المظلم!

***

في البدء شممت هذا العطر الفواح، وحين رفعت عيني لأعلى طالعتني أكبر حصة من الجمال وقعت عليها عيناي في حياتي!

كنت وقتها شابًا تجاوز العشرين بعامين أو ثلاثة، أنهيت دراستي الجامعية دون أن أذهب إلى الجامعة إلا لمامًا، وأقبع في ذلك الدكان الضيق أنقر على الآلة الكاتبة، برفقة زميل بدين كالخرتيت، وبجواري عشرات الدفاتر، وآلاف الأوراق الفارغة والمسودة، ولم أكن قد احتجت إلى نظارة طبية أو عملية بعد!

لم أكن معتادًا في جلستي هذه على رؤية مثل هذا النوع من الجمال، زبائني من الإناث قليلات أصلاً، ومع قلتهن – في الغالب – يكن بدينات، ثقيلات، قصيرات القامة، يرتدين النظارات السميكة، ويتحدثن بطريقة عملية خشنة، وكانت أول مرة أشاهد مثل هذا الجمال الساحر..

إنه ذلك النوع من الجمال الرقيق النقي، الذي يشع براءة ونقاء، ملامح دقيقة هادئة، مرسومة بعناية، وجه أبيض شبه مستدير، قامة ممشوقة، وقوام متسق مثير، وشعر كستنائي مجعد، معقوص من الخلف بطريقة بسيطة لكنها ساحرة، كانت ترتدي جيبة كاروهات رمادية، تمتد إلى ما تحت الركبتين بقليل، وبلوفر أزرق فاتح، وجورب أبيض طويل. في هذا الوقت كانت الكاروهات موضة قديمة قد اندثرت في البلاد، وقد جعلتها هذه الثياب البسيطة أشبه بتلميذة خارجة من المدرسة لتوها.. أما الشيء الذي خلب لبي، وأسقطني في دوامة الخبل: فهو هاتان العينان الواسعتان اللتان لم أر مثلهما في حياتي، عينان ملونتان نفاذتان، لا أستطيع أن أحدد لونهما بالتحديد، إنهما مزيج من الأخضر والأصفر والرمادي، وقد رشقتا كسهمين حادين في صميم فؤادي!

أعتقد أني استغرقت طويلًا في مطالعة تلك التفاصيل الظاهرية، بينما كانت هي تقف على مدخل الدكان في ارتباك، وانتبهت للمرة الأولى إلى أني أقبع وحيدًا بالدكان، وتذكرت أن زميلي البدين غادر منذ دقائق بحجة أنه ذاهب للتبول بدورة مياه المسجد المجاور، وأعرف بحكم العادة أنه سيجد لنفسه حججًا أخرى ليغيب وقتًا أطول، حتى يريح نفسه من الطقطقة على أزرار الآلة الكاتبة، والتحديق في الأوراق والحبر.

لم أنتبه إلا وهي تقول لي بصوت عذب ساحر ككل شيء فيها:-

- "أريد أن أطبع شيئًا ما على الآلة الكاتبة.."

ظللت أنظر إليها ببلاهة، ولم أرد، فازدادت ارتباكًا، لكنها تقدمت نحوي بخطوات متعثرة، وانتبهت لأول مرة إلى ذلك الدفتر الذي تحمله بيديها، هو دفتر كأي دفتر آخر، لكنه بدا لي في غاية الأناقة وقتها، فقط لأنها تحمله بيدها الصغيرة الرقيقة.

بدأت أستعيد سيطرتي على نفسي، نهضت واقفًا وأشرت إلى مقعد خشبي قريب، ودعوتها للجلوس بنبرة مرتبكة، فلست معتادًا على الترحيب بأحد، لا سيما ساحرة كهذه! فجلست في وداعة، وإن كانت لا تزال مرتبكة، وارتباكها يزداد شيئًا فشيئًا، وقد تورد وجهها الجميل بصورة رائعة.

- "تحت أمرك.."

هذه كلمة روتينية أقولها لكل من يأتي إلي هذا الدكان، لكني كنت أعنيها هذه المرة بصدق.

قالت بصوتها العذب الساحر المرتبك:-

- "هذه مجموعة قصائد كتبتها.. و... أريد أن... أعني... أريد أن... أطبعها على الآلة الكاتبة.. كي ... أقدمها لـ.....!"

لم أكن بحاجة لسماع كل هذا، فأنا أعمل بمحل آلة كاتبة، ومن يأتِ ها هنا بالتأكيد هو آتٍ لطباعة شيء ما على الآلة الكاتبة، قد يكون عملًا أدبيًا، كرواية، أو مجموعة قصصية، أو ديوان شعر، أو سلسلة مقالات صحافية، وقد تكون دراسة علمية، أو ملزمة جامعية، وقد يكون خطابًا أو شكوى رسمية، أو مذكرة قانونية..

هي تقول: إنها مجموعة قصائد، إذن هي شاعرة، وأتوقع من قبل أن أقرأ أنها موهوبة للغاية، وشعرها من أجمل ما يكون، لا يمكن أن أتوقع سوى هذا من فاتنة كهذه!

- "حسنٌ!"

ومددت يدي لأتناول منها الدفتر، فناولته لي بيدي مرتعدة، إنها خجلة بشكل غير طبيعي! أول شيء طالعته على غلاف الدفتر اسم (شمس)، هكذا فقط (شمس) بدون لقب، وهو اسم رائع حقًا، وبالتأكيد يليق بها وهي تملك هذا

السطوع الوهاج، شرعت أقلب في الدفتر لكني لم أقرأ حرفًا، لقد كانت حواسي كلها معلقة بتلك الفاتنة..

في الحقيقة أنا لست من هذا النوع الذي يسحر بأي أنثى، وفي حياتي لم تكن لي علاقة بأية أنثى، في الواقع لم أر إناثًا سوى نساء هذا الحي الفقير، وهن في الحقيقة أبعد ما يكن عن الأنوثة، لكني رأيت إناثًا من كل الأصناف والأشكال بالجامعة، التي لم أكن أذهب إليها إلا في الامتحانات فقط، ومع ذلك لا أذكر أني شعرت بأي ميل أو انجذاب تجاه أية أنثى رأيتها هناك.

لكن هذه ليست أنثى عادية، وأنا واثق من أن سحرها كفيل بإحداث هذا التأثير حتى بالحجر الصوان! لا أذكر ماذا كنت أقول لها حينها، لكن مؤكد أنه كلام أبله مرتبك، لا يزيد على ترحيب مشوه، وربما لم أكن أقول شيئًا على الإطلاق، فقط أذكر أني قلت لها:-

- "ممتاز.. سأبدأ في كتابتها بمجرد أن أنتهي من هذه الملزمة، وقد أوشكت على الانتهاء منها بالمناسبة.."

لكنها لم ترد..

عادة أول ما يهمني في أي عمل أنا مطالب بكتابته: الخط، يجب أن يكون الخط واضحًا، لا يهم أن يكون جميلًا، المهم أن يكون واضحًا، أستطيع قراءته حتى أتمكن من نسخه على الآلة الكاتبة دون عناء، وبالطبع أول شيء أطلبه من الزبون أقرب رقم هاتف له حتى أتواصل معه إذا غمض عليّ شيء مما كتبه، وتكون المشكلة معقدة إذا لم يكن لدى الزبون هاتف في منزله، وبالطبع وقتها لم تكن ثمة جوالات بالعالم أجمع!

خطها صغير كأية أنثى بالعالم، لا أدري لماذا تكون دائمًا خطوط النساء صغيرة، إنه طابع مميز لهن، ويشاركهن فيه قليل من الرجال، ولهذا نصفه بأنه خط

"حريمي"، لكن الجيد أن خطها كان واضحًا يمكن قراءته، ومع ذلك سأطلب رقم هاتفها لعل عقبة تصادفني في قراءة بعض الكلمات، هذا بخلاف المتعة التي سأجدها حين أسمع صوتها!

كانت لا تزال مرتبكة، متوردة الوجه، بصرها مطأطأ إلى الأرض، أود حقًا لو رفعت عينيها إليّ وهي تحدثني فقط لأستمتع برؤية هاتين العينين الملونتين الساحرتين. ليس من عادتي الثرثرة مع الزبائن، هي عبارات قليلة محفوظة أتبادلها معهم، ولا أطيل حتى أتمكن من مواصلة عملي في هدوء، لكني شعرت برغبة مُلحّة في محادثة هذا الحسناء الساحرة!

– "تكتبين الشعر منذ فترة طويلة؟"

كلام سخيف للغاية، وليس له أي معنى مفيد، لكنها رفعت عينيها الملونتين الساحرتين وخفضتهما سريعة، ولم تجب بحرف.. هذا محبط!

لكني عدت أقول:–

– "هل تنوين طباعة ديوان شعر خاص بك؟"

قالت في ارتباك دون أن تنظر إليّ:–

– "لا.. بل..."

ترددت قليلًا قبل أن تستطرد:–

– "هناك ندوة ستقام بـ... بمكان ما، سيحضرها بعض الـ... شعراء المعروفين، ونصحتني إحدى صديقاتي بأن ....."

آها.. مفهوم! بأن تحضر تلك الندوة وتعرض قصائدها على أحد هؤلاء الشعراء المعروفين، لعل وعسى يتيح لها فرصة لنشر بعض تلك القصائد، وتضع قدميها على أول السلم! أعتقد أنهم سيمنحونها هذا، ليس بسبب موهبتها، بل بسبب ما هي عليه من ذلك السحر الفتان، جمال الأنثى هو أعظم وسائلها لتحقيق

مآربها، وأكثرها فاعلية، ما لم يكن وسيلتها الوحيدة، أما الموهبة فلا أهمية لها على الإطلاق!

لكن مع ذلك يبقى احتمال مقلق: أن يحاول أحدهم استغلالها، والتلاعب بها مستغلًا سذاجتها وطموحها، إن الأدباء أرقى الناس في الكتابة والتعامل مع الآخرين، لكن المسوخ التي قد يخفونها بداخلهم هي أكثر المسوخ البشرية دناءة ووضاعة. الأمر يستدعي القلق بالفعل، وأتمنى لو أنصحها بأن تنتبه، لكني لم أصل بعد لدرجة تقدم أدنى نصيحة لها!

- "أتمنى لك التوفيق!"

شكرتني بإيماءة من رأسها فقط، ولم تقل شيئًا، لكني كنت أرغب بشدة في محادثتها، فعدت أسألها:-

- "متى ستعقد هذه الندوة؟"

قالت دون أن تنظر إليّ كالعادة:-

- "يوم ٢٣ من الشهر الجاري، أي بعد عشرة أيام من الآن!"

الوقت ضيق للغاية، لكن لا بأس، كتابة الشعر وإن كانت تتطلب عناية بالغة، لكن الشعر الحر مريح في كتابته، وكلمات قليلة منه تملأ صفحات كثيرة، يمكنني أن أنتهي من هذا الدفتر في بضعة أيام، خاصة مع تلك الحماسة التي تملؤني لخدمة هذه الحسناء.

- "ليكن.. سأشرع فيه اليوم، يمكنك المرور آخر الأسبوع وإن شاء الله سأكون قد انتهيت منه"

شكرتني في خفوت، بينما كنت أتحسر لأن ما قلته الآن يعني انتهاء المحادثة، وأنا الذي أنهيتها بنفسي، وقد نهضت هي قائمة بالفعل، واستعدت للانصراف، لكنها نظرت إليّ فجأة بعينيها الملونتين الساحرتين، وظلت تحدق برهة في عيني

بطريقة غامضة، قبل أن تميل قليلًا تجاهي وتمد يدها لتستعيد الدفتر مرة أخرى، وقالت بنبرة غريبة:-

- "آسفة.. لقد غيرت رأيي!"

ماذا؟!!

تبدلت نظرتي أنا إليها، من نظرة إعجاب وانبهار، إلى نظرة دهشة وذهول!

- "مهلًا.. لماذا ....؟!"

لكنها سحبت الدفتر من يدي بنعومة، وانصرفت بخطوات سريعة ليست مرتبكة على الإطلاق!

حاولت أن أناديها، لكنها كانت قد غادرت بالفعل، قمت بسرعة من مقعدي، وهرولت تجاه الشارع الخارجي لأنظر إليها، لكنها كانت قد اختفت تمامًا، كأنه تبخرت، وقفت في مكاني لعدة دقائق مذهولًا مبهوتًا أحاول استيعاب ما حدث! لقد كان الأمر غريبًا لأقصى درجة..

من هذه؟! ولماذا جاءت إلى هنا؟ ولماذا غيرت رأيها بهذه الطريقة؟

وهل قلت شيئًا جعلها تتوجس مني وتلوذ بالفرار بهذه الطريقة؟

هل أخطأت في أي شيء؟!

تساؤلات عديدة ومتشابكة ظلت تحلق من حولي كالوطاويط السوداء، لكن الحقيقة الوحيدة التي بدت واضحة للغاية: أنها رحلت ولن تعود!

كان شعاعًا خاطفًا من الضوء، توهج كالبرق في نفقي المظلم، ثم خبا إلى الأبد!

***

الفـــصل السادس

قالت بوجه متجهم:-

- "مرحبًا.. اسمي (نادية)، لا مشكلة في أن أخبركم بسني، لقد تجاوزت الأربعين، صحافية"

(نادية) اسم لا يطابق سمتها بالمرة، لكني عرفت من أول وهلة أنها أربعينية، بقامتها القصيرة، وقوامها البدين، ووجهها العريض الذي بدأت تتسلل إليه التجاعيد، وشعرها القصير المجعد، وكونها صحافية أيضًا ليس بمستنكر، أستطيع أن أخمن بقية التفاصيل: مطلقة، تعول أربعة أطفال، ساخطة وناقمة على المجتمع، تعاني من الاضطهاد.... إلخ!

- "أنا رئيسة قسم الحوادث بالجريدة، طبعًا ستشعرون بالـ... دهشة، والاستنكار، وذلك بسبب كوني امرأة، عادة قسم الحوادث مخصص للرجال، على الأقل حسب مفهوم عامة الناس عن الصحافة، لكن الحقيقة ليست كذلك، هناك بعض النساء يعملن بقسم الحوادث في مختلف الجرائد، لكن يمكنكم القول: إن الصحافيات الإناث هن من ينفرن من هذا القسم، ويتجهن إلى القسم الفني أو الأدبي، وأحيانًا الرياضي، لأنها أقسام توافق ميولهن، لكن بالنسبة لي: أعترف بأني كنت حانقة ورافضة لوجودي بقسم الحوادث على الأقل خلال العام الأولمن عملي هناك، لكني بعد ذلك انسجمت معه، بل تحمست له بشدة، وأبديت فيه تفوقًا ملحوظًا أهلني لرئاسة القسم بعد سنوات!"

عن نفسي أنا الوحيد هنا الذي لست مندهشًا أو مستنكرًا، هذه المرأة لديها

مشكلة: ربما إحساس بالنقص، ربما رغبة في السيطرة، ربما تشعر بأن جميع من حولها ينظرون لها بتنقص واستخفاف، المهم أنها لديها مشكلة مع الآخرين، أيًا كان هؤلاء الآخرون!

- "ربما يجدر التنبيه على أني دخلت عالم الصحافة بوساطة أحد معارف العائلة، لكني – لسوء الحظ – اصطدمت برئيس تحرير مشهور بعلاقاته النسائية، وأنا لم أكن من النوع الذي يفضله بالرغم من ذلك، فأرسلني إلى قسم الحوادث، ورفض حتى مناقشة الأمر معي أو مع أي شخص آخر حاول أن يتدخل ليقنعه بنقلي إلى قسم آخر.. كانت الأشهر الأولى هي الأصعب في حياتي، فقد كان لزامًا عليّ أن أثبت جدارتي في قسم لا أحبه، وأتواجد في أماكن أنفر في العادة منها، كالمحاكم وأقسام الشرطة، لعلي أظفر بحدث يستحق النشر، ويثير اهتمام القراء، لكني كنت ذكية بما يكفي لأكتشف بنفسي طرقًا أخرى أقل مشقة، وأكثر نجاعة، وهي باختصار: البحث عن زاوية أخرى للحدث، هل تفهمون ما أعنيه؟"

نظرات الحيرة والجهل في عيون الآخرين، بالطبع لم يفهم أحد، لكن د. (نجيب) وضع قاعدة صارمة: ينبغي ألا ينطق أحد إلا بعد انتهاء المتحدث من روايته، ويحين وقت مناقشتها، وقد التزم بها الجميع.. عن نفسي لا أرغب في فهم شيء، ولا مناقشة أي شيء، لا أرغب حتى في الإنصات لهذا الهراء الذي لا أعرف ما جدواه بعد!

- "حين تقتل الزوجة زوجها، وتقطعه إربًا وتعبئه في أكياس بلاستيكية، تصير قضية رأي عام، والرأي العام بالكامل يدينها ويطالب بإعدامها، وتنقض الصحافة عليها مصدرة أحكامها قبل القضاة، هنا أنا أختار زاوية أخرى للحدث، زاوية تجعل من الزوجة ضحية تستحق تعاطف الناس، لا إدانتهم..

الزاوية الأخرى عادة تثير اهتمام الناس أكثر، حتى لو كانت غير حقيقية، لأن الناس تبحث دائمًا عن الجزء الناقص أو المختلف في الصورة.."

الآن صرنا نفهم، إنه نوع من الاحتيال المهني، لكن هل هو مشروع؟!

- "لقد برعت في هذا، وجعلني أحتل مكانة لا بأس بها في مجال عملي، والأهم: أنه أقنع كل من حولي بأني لست تلك الأنثى الساذجة الغبية التي تنقاد للآخرين، وتحتاج دائمًا إلى مساعدة"

إنها النعرة الأنثوية المعتادة من هذه المرأة، إنها تفتقد كثيرًا لجماليات الأنوثة، لكنها شديدة الاعتزاز بأنوثتها بالرغم من ذلك، ربما هي ردة فعل عكسية يمارسها بعضنا حين يشعر بالنقص في مجال ما، فيتحمس له بشكل مبالغ فيه فقط ليثبت لنفسه وللآخرين أنه ينتمي إلى ذاك المجال!

- "بالرغم من عملي في قسم الحوادث لسنوات طويلة إلا أن مقابلتي ذلك السفاح تركت بي أثرًا سيظل راسخًا إلى الأبد، وأعتقد أن وجودي هنا هو نتيجة لتلك المقابلة!!"

***

قال لي الأستاذ (جاد) وهو يتشبث بذراعي بقوة مؤلمة:-

- "إنهم محتالون يا بنيّ.. بإمكانهم إظهار الجاني مجنيًا عليه، والعكس، يستطيعون تجميل الأشرار وتشويه الشرفاء بسهولة بالغة!"

كنا نعبر الطريق وسط السيارات المبطئة في ذلك الشارع المكتظ، وكان الأستاذ (جاد) بارعًا في ذلك بالرغم من ثقل وزنه وبطء حركته، أما أنا فقد كنت خائفًا بشدة من العبور، لولا أنه كان متشبثًا بي بقوة، ليمنعني من التراجع أو الوقوف، حتى تمكنّا أخيرًا من بلوغ الجهة الأخرى بسلام..

كان الأستاذ (جاد) ممسكًا بالجريدة في يده الأخرى، حتى ابتل موضع يده

بالعرق، وحين سرنا على الرصيف الآخر، بسط صفحة من الجريدة أمامي، وقال لي:-

- "انظر.. إنه رجل أعمال شهير، متهم بقتل عشيقة له، لقد نجحوا في تجييش الرأي العام ضده، وأدانوه قبل المحكمة، لكني واثق من أنه بريء.. هو فقط فشل في إثبات ولائه للسادة!"

الأستاذ (جاد) جارنا بالحي، كان معلم تاريخ بالمدرسة الثانوية، وكان مثقفًا بشكل لا يطاق من أهل الحي الشعبي الذين يغلب عليهم الجهل والسوقية، وكانوا يتحاشون محادثته وينظرون إليه كمن يتعالى عليهم بثقافته، وهو لم يكن يكترث بنفورهم منه، بل أعتقد أنه كان سعيدًا به!

لكن مع ذلك كان الأستاذ (جاد) أقربهم إلى أسرتي، وأكثرهم عطفًا علينا نحن الأيتام، وفيما بعد سمعت من بعض الخبثاء أنهم يظنون أن عطفه هذا كان من أجل عيون الأرملة الشابة الجميلة والدة الأيتام، فقد كان مطلقًا، ويعيش وحيدًا بلا أبناء، لكن كل هذا لم يكن يعني لي شيئًا، فقد مات وأنا بالمدرسة الإعدادية، وأنا واثق من أنه لم يظفر بشيء إن كانوا صادقين في زعمهم.

كنت أحب الأستاذ (جاد) لما يغدقه عليّ من عطف، وإن كنت لا أفهم أي شيء مما كان يقوله، وفي تلك اللحظة كنت نافرًا من السير في ذلك الطريق المزدحم بالمارة والسيارات، نافرًا من الضجيج الذي يصدر من كل شيء حولنا، حتى توقفنا أمام بناية شاهقة، قال لي مبتسمًا:-

- "الطبيب في الطابق الرابع، لحسن الحظ هناك مصعد، لن نضطر لصعود السلم على أقدامنا، كما أننا لن ننتظر طويلًا لأني حجزت من الأمس، واتفقت مع الممرض على موعد الكشف بدقة!"

لكننا انتظرنا بالردهة دقائق بدت لي طويلة جدًا، كنت أقلب فيها بصري بين

الزبائن الذين يجلسون في الانتظار، والممرض الذي يقبع بجانب باب حجرة الطبيب وأمامه دفتر صغير به أسماء أولئك الزبائن، بينما الأستاذ (جاد) منهمك في تصفح الجريدة التي معه، ويتنقل بين صفحاتها ببطء، لم أحاول حتى النظر في الجريدة بالرغم من أنه يفردها أمامي ليعطيني مساحة لمطالعتها معه.

فجأة أشار إلى صورة لشخص يرتدي بدلة ورابطة عنق أنيقة، وقال لي:-

- "هؤلاء هم القتلة واللصوص الحقيقيون، لكن لا أحد يعاقبهم، بل يكرمونهم على سلب أحلام البسطاء!"

لست مهتمًا بهذا، لست مهتمًا بأي شيء على الإطلاق! وأتساءل: لماذا اصطحبني إلى ذاك الطبيب؟ هو المريض لا أنا، ربما لأنه لا يجد من يثرثر معه من أهل الحي، فاكتفى بذلك الرفيق الصغير الساذج الذي يستمع دون أن يستوعب شيئًا.

وعلى هذا الاحتمال يكون في الحقيقة يتحدث إلى نفسه لا إليّ أنا! متى يحين دورنا وندخل على ذلك الطبيب؟!

***

قالت وهي تشيح ببصرها بعيدًا عن الجالسين:-

- "إنه مجرم، سفاح قاتل، يريد أن يصنع من نفسه نسخة من (باتمان) أو بالأحرى (ديكستر)، ويزعم أنه لا يقتل سوى المجرمين العتاة، المشكلة أنه لم يعرف (باتمان) أو (ديكستر)، فهو ليس مثقفًا ولا ملمًا بأي شيء يدور بالعالم الخارجي، لكنه يقدم نفسه باعتباره ملك الموت، ملك الموت الذي لا يقتل سوى الأشرار، وهذا مزعج جدًا.."

عادت تقلب بصرها في الحاضرين وهي تستطرد:-

- "لقد نجحت الشرطة في الوصول إليه، واعتقاله، لكنه رفض أن يخبرهم بأي

شيء عن ضحاياه أو حتى عن مكان جثثهم، وصمد أمام كل وسائلهم التي يستعملونها في انتزاع الاعترافات، وأعتقد أنكم على علم بها، وفي النهاية ساومهم على إجراء مقابلة صحفية معه، يسرد فيها بطولاته، مقابل الاعتراف بكل شيء وإمدادهم بكل التفاصيل التي يرغبون في معرفتها، وقد وافقوا على ذلك.."

ابتسمت على غير العادة، وهي تضيف:-

- "لكنه كان ذكيًا بما يكفي ليكتشف ذلك الشرطي الذي جاءوا به ليقدم نفسه إليه باعتباره صحافيًا أتى لإجراء تلك المقابلة، الشرطيون مهما تنكروا يكونون معروفين للقتلة، ثم اشترط عليهم أن الصحافي الذي يجري معه المقابلة يجب أن يكون امرأة، وهذا ما جعلهم يستعينون بي أنا!"

حسنٌ.. لقد استطاعت أن تجذب انتباه الحاضرين، إن سيرة القتلة والسفاحين مثيرة دائمًا، أنا الوحيد الذي لم أتحمس للأمر، وأنتظر أن تنتهي هذه الجلسة بفارغ الصبر!

- "بالطبع أنتم تتساءلون عن تلك المقابلة وما دار فيها، لكن يؤسفني أن أخبركم بأني غير مسموح لي بالتحدث في هذا الأمر، حتى لطبيبي النفسي، والشرطة خدعت ذلك السفاح جيدًا، حتى أنهم طبعوا بضعة نسخ من عدد غير موجود بالواقع، وجعلوه يقتنع بأن المقابلة نشرت بالفعل، ومصر كلها لا حديث لها سوى عنه، وحصلوا منه على ما يريدون، ثم أعدموا كل الشرائط والتسجيلات لتلك المقابلة، قبل أن يعدموه هو شخصيًا بعد ذلك، ويعدموا سيرته بالكامل!"

صمتت برهة لتلتقط أنفاسها، ثم استطردت:-

- "لكن تلك المقابلة تركت أثرها في نفسي أنا، فجأة أدركت أن القتلة والمجرمين

هم منا، ومن بيننا، وأن أي شخص منا معرض في أية لحظة لأن يتحول إلى مجرم، بل إلى وحش مخيف، مهما بدا عليه الوقار والاتزان والتعقل.. كما أدركت أيضًا أن قتل إنسان وتمزيقه إربًا أمر ليس صعبًا على البعض.. ليس صعبًا على الإطلاق!"

حسنٌ.. هذا أفضل نسبيًا من الحديث عن الإنمي، ومع ذلك أشعر بكثير من الضجر، وأتوقع ما سيحدث في اللحظات التالية: سوف يتلبس الحاضرون روح أفلاطون، وأرسطو، وفرويد، وينخرطون في النقاش حول ما إذا كان الإنسان خيّر بطبعه أم شرير، وهل أفعال الشر غريزة به وطبع، أم أنها مكتسبة من فساد المجتمع..... إلخ!

يا إلهي! هل يتعيّن عليّ أن أنصت لكل هذا الهراء؟!

كان ذلك الأشيب أكبر الحاضرين سنًا هو أول من تحدث، قال ساخرًا:-

- "لا أعتقد أن الأمر كذلك، لو كان القتل سهلًا هكذا لتخلصت من زوجتي أو من أمها منذ زمن بعيد!"

لينخرط الحاضرون في الضحك، فيما عداي بالطبع!

وكما توقعت انخرط الحاضرون في النقاش حول طبيعته الإنسان وميله الغريزي هل هو إلى الخير أم إلى الشر، وهكذا وجدت منهم من يتحدث كما لو كان (توماس هوبز)، ويزعم أن الإنسان بطبعه همجي، لا يمكنه أن يتعايش مع بني جنسه في سلام إلا في وجود قوانين رادعة، وقواعد أخلاقية تكبح شهواته وغرائزه، بينما تقمص آخر شخصية (روسو)، وراح يؤكد أن الإنسان خيّر بطبعه، وأن الشر طارئ عليه، وشرع يحدثنا عن فساد النظام الطبقي الذي يفرضه المجتمع، وما ينطوي عليه من ظلم وجشع.. ولا أستبعد أن يرتدي أحدهم عباءة أرسطو، ويؤكد على الإنسان يولد بلا أخلاق، ويكتسبها بالتعلم!

لا أريد أن أستمع إلى شيء من هذا، لا أريد!!

- "وما رأيك أنت؟"

كالعادة لكزني صديقي د. (نجيب) في كتفي ليشركني عمدًا في الحوار الذي لا أطيق المشاركة فيه! لكني ملزم – فيما يبدو – بالمشاركة والتحدث!

نظرت إلى المرأة البدينة مباشرة، وسألتها:-

- "أنت مطلقة؟"

انقض د. (نجيب) كالصقر وقال بصوت أشبه بالزمجرة:-

- "ممنوع توجيه مثل هذه الأسئلة! إنها تفاصيل شخصية تخص المتحدث، ولا يحق لنا مشاركته إياها!"

تبًا لك! أنت من أردت مني المشاركة!

لكن المرأة أجابت بثبات:-

- "أنا لم أتزوج من الأساس.. ولا أنوي ذلك مطلقًا!"

لم أتوقع هذا، ولن أفكر في الأسباب، لكنه يقودني إلى السؤال التالي:-

- "هل سبق لك أن فكرتِ في قتل أحدهم من قبل؟"

كان السؤال مباغتًا للحاضرين جميعًا، أعتقد أنهم بهتوا عندما سمعوه، وتوقعت أن ينقض د. (نجيب) كالصقر مزمجرًا مرة أخرى، لكنه لم يفعل، ورأيته بطرف عيني يحدق في وجهي بطريقة جافة، أخمن أنه يسبني في سره الآن، لولا أنه كان – في ذات الوقت – مهتمًا بسماع إجابتها..

قالت مبتسمة:-

- "لم أتوقف عن التفكير في هذا كل ليلة منذ أن كنت طفلة، وحتى اليوم، وسيدهشك كمّ الأشخاص الذين فكرت في قتلهم، بل في تمزيقهم إربًا!"

وفرض الصمت هيمنته المطلقة على الحاضرين!

الفصل السابع

الغرفة ضيقة، مساحتها بالضبط (٣,٣م × ٢,٨ م)، ولا تسألوني كيف عرفت مقاسها، لأني طالما دخلتها وقضيت أوقاتًا طويلة بها. فيها مكتب صغير له ثلاثة أدراج، ومقعدان خشبيان، أحدهما خلف المكتب، والآخر أمامه، ومكتبة صغيرة مكونة من جزءين يعلو أحدهما الآخر، أشبه بالمطبخ الخشبي الريفي البسيط، غير أن واجهته زجاجية، وكانت مكتظة بالكتب في مختلف المجالات، وقد انتزع منها بضعة كتب متفاوتة الأحجام وضعها فوق المكتب لتكون متاحة له عند حاجته إليها. فوق المكتب أوراق وكشاكيل وكراسات ودفاتر وأقلام، وكل ما يحتاجه أي كاتب ليكتب شيئًا ما، مهما كانت قيمة ما يكتبه!

الغرفة ضيقة، لكنها ليست ممتلئة بالأثاث، لهذا استطاع الكاتب الشاب (ناصر الباز) أن يتحرك بها جيئة وذهابًا، بقامته القصيرة، وقوامه المتوسط، وقد عقد يديه خلف ظهره، ورفع نظارة القراءة فوق مقدمة رأسه، وزم حاجبيه وفمه، وثبت عينيه على الفراغ..

الأستاذ (ناصر الباز) يفكر في شيء ما، أعرف طريقته حين يشرد ويفكر، تمامًا مثلما أعرف تفاصيل غرفته، بحكم طول رفقتنا، لكني لم أستطع أبدًا أن أنفذ إلى داخل عقله، لأعرف فيم يفكر في أية مرة من المرات، سوى هذه المرة!

هذه المرة لم يكن يفكر في أحداث رواية يكتبها، ولا في صياغة عبارة يبحث عن أفضل تركيب لها، بل كان يفكر فيها هي! هي لا غيرها!

تتساءلون: من هي؟ إنها هي: (ثناء).. من غيرها؟!

للمرة الأولى على الإطلاق ينشغل تفكير الأستاذ بامرأة على هذا النحو، لم يلقها سوى مرتين، لكنها تركت به أثرًا يعرف أنه لن يستطيع تجاوزه بسهولة!

لم أكن حاضرًا في المرة الأولى، فقد التقاها الأستاذ في ندوة أدبية دعي إليها برعاية الصحيفة التي كان يكتب لها في ذاك الوقت، ودار النشر التي ستتولى طباعة روايته الجديدة، ولم يدعني أحد إليها، لا هو ولا القائمون على الصحيفة والندوة، كان الأستاذ قد انتهى من نشر روايته الثالثة (دوائر مغلقة) مسلسلة في حلقات أسبوعية، وبالرغم من أنها طالت كثيرًا، حتى تجاوزت الثلاثين حلقة، إلا أن قراءه تابعوها بشغف حتى النهاية، لقد بزغ اسم (ناصر الباز) كثيرًا خلال السنوات القليلة الماضية، على الأقل في الأوساط الأدبية والثقافية، من خلال روايتين طويلتين نشرهما، ومجموعة من القصص القصيرة، وأصبح له رصيد لا بأس به من القراء والمهتمين بحرفه!

لم أحضر الندوة، لكني أعرف أن أسئلة الذكور اتجهت إلى أحداث الرواية وشخصياتها، بينما أسئلة الإناث اتجهت إلى الكاتب ذاته، لم يكن (ناصر الباز) وسيمًا بدرجة تثير الإعجاب، صحيح أن عينيه رماديتان، لكنه كان متوسطًا في كل شيء، وكانت له جاذبية خاصة حين يتحدث، عادة معظم الكتاب الماهرين في الكتابة لا يجيدون التحدث بلباقة شفهيًا، إبداعهم يتركز في أيديهم وأقلامهم لا في ألسنتهم، لكن (ناصر الباز) كسر هذه القاعدة، كان كاتبًا بارعًا جدًا، ومتحدثًا أكثر براعة، إنه شخص لا تمل من حديثه أبدًا، لأنه ببساطة يعرف ما يتحدث عنه، ويعرف متى يمزح، ومتى يجامل، ومتى يصارح، تستطيع أن تحادثه لساعات دون أن تضبط عليه زلة لسان واحدة، ومع ذلك كان انطوائيًا جدًا، وأصدقاؤه قليلون للغاية، يمكن عدهم على الأصابع، ولحسن الحظ كنت واحدًا منهم! ومن ثم لن يصعب عليكم أن تخمنوا كيف هيمن على الندوة هيمنة مطلقة، وساق كل من بها إلى حيث أراد بتمكن تام!

حتى وقفت تلك الفتاة الحسناء واستأذنت للسؤال، ووقفت بثبات تواجه

الكاتب وتطرح عليه ملاحظة لم ينتبه لها أحد سواها، قالت له بصوت عذب:-

- "من خلال كتاباتك التي أسعدني الاطلاع عليها، لاحظت أنك تفهم الأنثى داخليًا أكثر من أي كاتب آخر قرأت له!"

قبل أن تكمل ملاحظتها قاطعها الأستاذ قائلًا:-

- "من الواضح أنك لم تقرئي لكثيرين، ويسعدني هذا في الواقع!"

لتنخرط القاعة في الضحك، فتوترت الفتاة قليلًا، وحاولت أن تستعيد ثباتها، وهي تستطرد:-

- "قصدت أنك تفهم طريقة تفكير الأنثى بشكل دقيق، لكنك ترتكز على الجوانب السلبية في شخصيتها، وفي أفكارها، أكثر من الجوانب الإيجابية"

قاطعها مرة أخرى متظاهرًا بالدهشة:-

- "هل توجد بالأنثى جوانب إيجابية؟ هذه معلومة جديدة بالنسبة لي!"

لتنخرط القاعة في الضحك مرة أخرى، وهذه المرة توترت الفتاة، حتى أنها لم تتمكن من إتمام سؤالها على النحو المناسب، فشعر الأستاذ بالذنب، وقال لها متلطفًا:-

- "ما اسمك يا صغيرتي؟"

طبعًا أنتم لا تعرفون أن عمر الأستاذ وقتها كان يقترب من الأربعين، وبالتالي كانت كلمة (صغيرتي) مناسبة نوعًا ما لهذه الفتاة العشرينية الفاتنة، التي أجابت بتوتر:-

- "(ثناء).. (ثناء عبد العليم)"

واصل الأستاذ تلطفه معها، وهو يقول:-

- "بالسين أم بالثاء؟ طريقة نطقك لا توضح هذا"

وأضاف مازحًا:-

- "عن نفسي يذكرني هذا بـ (إسماعيل ياسين)، و(عبد المنعم إبراهيم) في ذاك الفيلم الشهير!"

لم يكن الأستاذ (ناصر) شديد المرح على هذا النحو، كان وقورًا جدًا، يمزح بحساب، لكنه في هذه الندوة فقد شيئًا من وقاره.. أجابت الفتاة وهي تخرج لسانها في الحرف:-

- "(ثناء) بالثاء"

قال الأستاذ بجدية:-

- "ممتاز.. اسمعيني جيدًا يا (ثناء) بالثاء، لقد فهمت سؤالك، أو أظنني فهمته، هي ملاحظة تتركب من جزءين: جزء إيجابي، وجزء سلبي، بالنسبة لك طبعًا، الجزء الإيجابي: هو معرفتي الدقيقة بنفسية المرأة، ولعلك تتساءلين منذ انتبهت لهذه الملاحظة وأنت تقرئين قصصي: كم عرف الأستاذ من الإناث ليحظى بهذه الدراية الدقيقة لشخصية الأنثى ونفسيتها، وطريقة تفكيرها، ومشاعرها الخفية؟ الجزء السلبي: يتمثل فيما ترينه أنت من ارتكاز على الجوانب السلبية في الأنثى، ولعلك تتساءلين أيضًا: كم تعرض الأستاذ لصدمات مع الإناث؟ وكيف لشخص بذكائه وموهبته أن يعرض نفسه للخديعة مرارًا؟"

ألم أقل لكم إن (ناصر الباز) متحدث بارع؟ إنه يجيد هذا ببراعة مذهلة، كما يجيد الجمع بين التملق والمصارحة، ويجيد أيضًا التلاعب بعقل من يحادثه والهيمنة عليه كليًا، وهو يتحدث بطريقة ملتفة، ومع ذلك تكون مفهومة للجميع، وهو الوحيد في العالم الذي يجيد هذه المناورة!

واصل الأستاذ موضحًا فكرته:-

- "كان الشاعر الأموي (جرير) يصر على افتتاح قصائد الهجاء خاصته بمقدمة فيها نسيب عذب، ولوعة محب، وحين سئل: كم مرة وقع في الحب، أجاب: أنا

لم أعشق قط، ولو عشقت لنسبت نسيبًا لو سمعته العجوز لبكت على ما فاتها من الشباب.. تعلمين يا صغيرتي: ما قاله (جرير) ينطبق عليّ تمامًا.."

وهذه المرة صفق الحضور بحرارة وحماسة شديدة!

***

هل كان الأستاذ صادقًا فيما قال؟

عن نفسي – رغم طول رفقتي به – لا أستطيع الجزم بأي شيء على الإطلاق! صحيح أني لا أعرف للأستاذ أية مغامرة مع النساء سوى هذه الفتاة التي صارت زوجته بعد عام واحد فقط من هذه الواقعة، هذا إن سلمنا بتسميتها مغامرة طبعًا، لكني مع ذلك لا أستبعد أن تكون له علاقات اجتهد في إخفائها عن الجميع، حتى عن أقرب المقربين له، ونجح في ذلك أيما نجاح!

لقد قرأت كل حرف كتبه الأستاذ في حياته، ما نشره وما لم يرتض له النشر، ما كتبه في المسودات الأولية، وما نقحه بعد ذلك، ورأيت عن قرب معرفته الدقيقة بعالم المرأة، فلا يحاول أحد إقناعي بأن الأستاذ لم يعرف نساء في حياته سوى تلك التي تزوجها لا غير!

أذكر أني واجهته بالسؤال ذات يوم بعيد:-

- "كم مرة أحببت؟ أو كم امرأة عرفتها؟"

كان الأستاذ ذكيًا جدًا، وعرف ما وراء السؤال، فقال لي بهدوء:-

- "هل قرأت قصتي (مهملات)؟"

بالتأكيد هو يعرف أني قرأتها منذ أن كانت مسودة، وأحفظ أحداثها عن ظهر قلب، كانت تحكي عن عامل قمامة يعمل بأحد المناطق، ومن خلال عمله عرف ما يعانيه أحد سكان المنطقة، وقصصه الخفية، فقط من خلال ما يجمعه من قمامته!

كانت قصة فلسفية عميقة، وفي ذات الوقت لذيذة وممتعة.

قال لي باسمًا:-

- "لم أعمل في جمع القمامة في حياتي، كما لم أسكن إطلاقًا في منطقة راقية كهذه!"

وقد فهمت المغزى!

أراد أن يقول: لست بحاجة لأن أجرب الأشياء حتى أكتب عنها، وعلى طريقته في تأكيد الشيء بأكثر من مثال، قال بذات الابتسامة:-

- "وأظنك قرأت قصة (مقايضة)، لم أحاول الانتحار في حياتي، ولم أطلب من أحد قط أن يقتلني!"

ورغم سلامة القياس لم أقتنع قط - حتى هذه اللحظة - بأنه لم يعرف نساء سوى زوجته، ولم يجرب الحب سوى تلك المرة! ليس لبراعته في التوغل داخل نفسية الأنثى فحسب، بل لأني أعتقد دومًا أن (ناصر الباز) لديه بئر عميق جدًا من الأسرار، التي لم يطلع عليها أحد، حتى أنا!

لكني اطلعت على اللقاء الثاني له بتلك الحسناء على الأقل، كان ذلك بأحد الصالونات الأدبية، التي اعتاد أن يصحبني إليها، لن أنسى ما حييت تلك النظرة التي أطلت من عينيه حين وقع بصره عليها هناك، نظرة لم أرها في عينيه سوى تلك المرة، نظرة تجمع بين المفاجأة والسعادة واللهفة، فلم يكن يتوقع أن يجدها هناك، لكني عرفت -كما عرف هو - أنها جاءت خصيصًا من أجله!

(ناصر الباز) اعتاد أن يهيمن على أي مجلس يحضره، لكني للمرة الأولى أراه واقعًا تحت هيمنة أحدهم، بل إحداهن، لقد ظل طوال الجلسة يتحدث وهو ينظر إلي الجميع، لكنه في الحقيقة كان لا يتحدث إلا إليها هي، ولا ينظر لسواها، لقد امتلكت تلك الحسناء ذات العينين العسليتين، والبشرة البيضاء،

والشعر الكستنائي الناعم عقله وقلبه وحواسه جميعها. لحسن الحظ أني الوحيد الذي لاحظ هذا، لكن لم يفتني أيضًا أن ألاحظ ذلك الانبهار في عينيها هي، ذلك الانبهار الذي كان يزداد باستمرار كلما فتح هو فاه ليقول شيئًا، وأكاد أجزم أنها كانت تعرف..

كانت تعرف أنه يخاطبها هي وحدها من بين الحضور!

***

يقولون: إن الانطباعات الأولى تدوم!

ربما كان هذا صحيحًا بشكل عام، لكن في حالتي أنا غير صحيح بالمرة، عادة تكون انطباعاتي الأولى خاطئة، وأتخلى عنها بمجرد أن أتبين خطأها، ومع الوقت صرت أثق بنقيضها تمامًا، فحين ألتقي بشخص ما ويتكون لديّ انطباع بأنه شخص لطيف، أجدني أتساءل: كم جريمة ارتكبها قبل لقائي به؟ بينما حين ألتقي بشخص ما ويتكون لديّ انطباع بأنه وغد، أجدني أتساءل: ماذا أطعم قطته قبل أن ألقاه؟ وهكذا..

ربما كان (ناصر الباز) أحد أسباب كفري بانطباعاتي الأولية، فما زلت أذكر لقائي الأول به منذ ما يقرب ثلاثين عامًا، كنت في مكتبتي التي تشبه دكان (ترزي)، أجلس على مقعدي الخشبي، منهمكًا في النقر على الآلة الكاتبة العتيقة، مستمتعًا بتلك الطقطقة التي تشبه صوت طلقات الرصاص، حين شعرت بمن يحجب عني الضوء القادم من الشارع، وحين رفعت بصري رأيته يقف على واجهة الباب، بقامته القصيرة، وتلك النظارة السوداء التي يخفي بها عينيه الضيقتين، والكاسكيت التي يدس فيها رأسه.

كان انطباعي الأول عنه: أنه شاب مرفه، من تلك الطبقة الثرية أو التي تليها، وترتفع فوق المتوسطة، شاب لم يجرب الشقاء ولم يتذوق الفقر في حياته، ولم

يمارس أي عمل يدوي، توقعت أن عينيه سوداوان واسعتان، لكنه حين خلع النظارة السوداء ظهرت عيناه الرماديتان الضيقتان، توقعت أن يكون شعره ناعمًا لامعًا مصففًا، لكنه حين أزال الكاسكيت ظهر لي شعره الأكرث المفروق على أحد الجانبين، كان يرتدي ثيابًا لا تدل على فقر ولا ثراء، لكنها تدل على علم وثقافة، وهذا هو الانطباع الوحيد الذي ظهر صوابه فيما بعد.. كان يحمل كشكولًا كثير الأوراق بيده، وطبعًا كان الطلب معروفًا، يريدني أن أطبع له هذا على الآلة الكاتبة، وعرفت أن أحد زبائني المثقفين دله علي مكتبتي، دعوته للجلوس، وسألته في اقتضاب:-

- "شِعر؟"

أجاب بنفس الاقتضاب:-

- "رواية.."

هذا أيسر، فالشعر يتطلب تنسيقًا وضبطًا أصعب مما تتطلبه الكتابة النثرية، وإن كان الشعر الحديث سهّل علينا الأمر بعض الشيء.

كان خطه رديئًا إلى حد ما، لكن يمكن قراءته، وهنا تكمن المشكلة عادة، في هذا الزمن لم يكن هناك جوالات، وكان الاتصال الهاتفي مكلفًا، وأحيانًا أجد صعوبة في قراءة بعض الكلمات، فأضطر للاتصال بالكاتب لأستوضح منه، وقد يتعذر هذا الاتصال في كثير من الأحيان، لذا يرهقني كثيرًا أصحاب الخط الرديء، وكذلك أصحاب الخط المنمق، لأن التزيين أحيانًا يبهم الكلمات، لكني أستريح جدًا لأصحاب الخط الواضح البعيد عن الرداءة والتنميق.

كان اسم الرواية: (الرقص على الأمواج)، لم يرقني هذا العنوان، لكني اعتدت أن أحتفظ بآرائي السلبية لنفسي، فقط تكوّن لدي انطباع أن هذا الرجل ذو موهبة محدودة، وهو الانطباع الذي تأكد لي خطأه بمجرد أن قرأت الصفحات العشر

الأوَل من روايته.. ربما لا تعلمون أني قارئ جيد، بخلاف كوني مستخدمًا بارعًا للآلة الكاتبة، وبالتالي قدّرتُ قيمة موهبة (ناصر الباز) حين قرأت تلك الرواية، التي عرفت منه أنها الثانية له، وأنه سبق أن أصدر رواية قبل عدة سنوات لاقت بعض النجاح، ثم تفرغ لكتابة القصص القصيرة ونشرها بالمجلات، قبل أن يعاود كتابة الرواية الطويلة من جديد.

سألني حينها:-

- "كم يلزمك من الوقت حتى تنتهي منها؟"

لم يكن قد أعجبني الخط ولا العنوان، وبالتالي لم تكن الرواية تثير شغفي، فقلت له:-

- "أسبوعان أو ثلاثة"

مط شفتيه بغير رضا، كأنه استطال المدة، لكني قلت له مبررًا:-

- "أنا مشغول بأشياء أخرى كما ترى، ربما أبدأ في روايتك بعد أسبوع من الآن"

في الواقع لم يكن هو المبرر الحقيقي، لكني كنت مقنعًا على أية حال، ثم مضى دون أن يناقشني في الأجر الذي سأناله، وأنا عن نفسي لم يكن لديّ أدنى فضول لمعرفة أي شيء عنه.

في المساء قبل أن أنام اعتدت أن أقرأ في أي شيء حتى يغلبني النعاس، فاخترت أن أقرأ في رواية هذا الرجل الغريب، فقط لأنها بدت لي مملة، وهذا يساعدني على النوم أسرع، ولم أنتبه إلا بعد منتصف الليل، بعد أن انتهيت من قراءتها كليًا، حتى آخر حرف منها، لقد كان (ناصر الباز) كاتبًا مذهلًا بكل المقاييس، لقد انبهرت بالراوية لأقصى مدى، كانت فريدة في مضمونها، وفي أسلوبها كذلك، كنت قد قرأت من القصص والروايات ما يكفي ليجعلني ناقدًا ذا ذوق

رفيع، وحكمًا جيدًا على المواهب.

كان قد ترك لي رقم هاتف منزلي، وطلب مني أن أتصل به حين أنتهي منها، وقبل مرور اليوم السادس منذ قدومه عندي كنت أتصل به، وأطلب حضوره ليأخذ روايته بعد أن فرغت من كتابتها له، وقد دهش هو كثيرًا لفرط سرعتي في الانتهاء منها.

أذكر أنه سألني حين أتاني قائلًا:-

- "باستطاعتك أن تكتب كم كلمة في الدقيقة؟"

لم أعرف كيف أجيبه، ففي الواقع لم أحاول معرفة ذلك، لكنه ألح ليعرف، لدرجة أنه أخرج ساعة من جيبه، وقال لي:-

- "عندما أشير إليك ابدأ كتابة أي شيء، وعندما أشير مرة أخرى توقف عن الكتابة"

بدا الأمر لي كأنها لعبة، ولم أعرف سر إصراره على معرفة هذا، لكني أمسكت بروايته، وشرعت في الكتابة مع إشارته، حتى أمرني بالتوقف، ثم أمسك بالورقة وشرع يعد كلماتها كلمة كلمة، ثم قال بنبرة غريبة، كأنه آسف:-

- "مائة وثلاثة وسبعين كلمة"

رفع عينيه الضيقتين إليّ وقال:-

- "إنه معدل جيد جدًا، لكنه - للأسف - ليس الأفضل"

ثم أوضح قائلًا:-

- "اكبر رقم سمعت به كان (٢١٢) كلمة في الدقيقة، وصلت إليه امرأة تدعى (ستيلا باجوناس) عام ١٩٤٥م، أعتقد أنه بإمكانك الوصول إلى ذاك المعدل بمزيد من الجهد والتمرس!"

لم أكترث بالأرقام التي ذكرها، بقدر ما كنت مهتمًا بما لديه من ثقافة ومعرفة،

لا سيما بعد أن قرأت روايته، وخبرت أسلوبه الشائق، وتولد لديّ فضول كبير ورهيب لمعرفة كل شيء عنه، وللمرة الأولى أتجرأ مع أحد زبائني، وأسأله مباشرة:-

- "سيدي.. من أنت؟!"

***

الغرفة ضيقة، بها أثاث بسيط، والأستاذ يروح ويجيء في شرود تام، كأنه مقبل على مغامرة، أو على اقتراف جريمة.

وفي نهاية الجولة من الشرود والذهاب والمجيء كان الأستاذ قد توصل إلى القرار الذي يعرف أنه سيقلب حياته رأسًا على عقب..

لقد قرر أن يتزوج تلك الفتاة التي تتبع ندواته وجلساته بالصالونات الأدبية، لكن لم يعرف قط في تلك اللحظة: هل كان هذا القرار مغامرة.. أم جريمة!!

***

الفصل الثامن

كتائه في صحراء جرداء، يحرك قدميه بتثاقل وإعياء، ينظر فيما حوله فلا يرى سوى خواء، يفتش عن ماء بين طيات الرمال فلا يرى سوى الهجير والظمأ، يفتش عن حياة فلا يرى سوى دخان يغشى عينيه الذابلتين، يسقط في يأس فوق الرمال الساخنة، لا يقوى على فتح عينيه في الشمس المتوهجة، يحاول أن يحشد ما تبقى من قواه لينهض من جديد، لكنه يتساءل: وماذا بعد أن ينهض من جديد؟ لا شيء سوى الهجير، والظمأ، والدخان، وطيات الرمال!

- "أهذا ما تشعر به؟"

- "نعم.."

ثم أستدرك في شك:-

- "ربما!"

يمط شفتيه في غموض، ثم يتنهد بصوت مسموع وهو يلقي سؤالًا جديدًا كعادته:-

- "ألا ترى أنها صورة شاعرية؟"

- "بل مأساوية"

- "مأساوية شاعرية!"

- "ليكن.. إنه أمر لم أختره، ولا أتمناه"

يتراجع بظهره للخلف، ويحدق في السقف في شرود، وأصابع يمناه تتحسس ذقنه!

- "(مختار) يا صديقي.. لقد كنا معًا في الطفولة والصبا، لم تكن ذلك الصبي الانطوائي الذي ينفر من الناس، كما أنك لم تكن ذلك التلميذ الموهوب الذي

يكتب الشعر، أو يسرد القصص، كنت صبيًا عاديًا في كل شيء، عاديًا بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ.. حتى حين انفصلنا في الثانوية العامة حيث اخترت أنا الشعبة العلمية، بينما فضلت أنت الشعبة الأدبية، ظللنا في ذات المدرسة، وكنا نلتقي يوميًا في الفناء نتبادل الأحاديث في شتى الموضوعات!"

ماذا تريد أن تقول؟

– "أتدري ما أكثر شيء تنبهت له فيك وقتها، وأستعيده الآن: أنك لم تكن مغرمًا بالبنات على الإطلاق، أنت المراهق الوحيد – من بين جميع من عرفتهم – الذي لم يكن يتحدث عن الجنس والنساء!"

ما علاقة هذا بأي شيء؟

– "لا شيء.. مجرد أمر تذكرته الآن!"

عاد يميل إلى الأمام تجاهي، ويحدق في عينيّ وهو يستطرد:–

– "لقد افترقنا تمامًا في الجامعة، لأنك اخترت كلية الآداب، لماذا اخترت الآداب بالذات؟"

ومن قال إني اخترت كلية الآداب؟

إنه مكتب التنسيق الذي اختارها لي، استنادًا إلى مجموعي المتوسط!

– " مجموعك المتوسط كان يعطيك خيارات عديدة، وكان يكفل لك الالتحاق بالعديد من الكليات والمعاهد الجيدة، ولا يلزمك بكلية الآداب دون غيرها!

– "حسنٌ.. لنقل إنها كلية نظرية لا تستوجب حضوري المحاضرات، وأنا كنت أنفق على نفسي بعملي على الآلة الكاتبة، بالإضافة إلى أن نفقاتها ليست باهظة، حتى الكتب كنت لا أشتريها بل أنسخها لأوفر بعض النقود، والأهم من ذلك أني لم يكن لديّ طموح كبير بعد التخرج، فقط كنت أريد وظيفة تكفل لي راتبًا ضئيلًا بجانب عملي الحر الذي يمنحني أجرًا ضئيلًا هو الآخر،

وتمضي الحياة!"

عاد الصمت ليسود برهة، وهو مستمر في تحسس ذقنه، والتحديق بالسقف، قبل أن يقول بنبرة جافة:-

- "لنعد إلى الصحراء.. هل تحلم بهذا في نومك؟"

- "وفي يقظتي أكثر"

- "بنفس التفاصيل"

- "تقصد الهجير والرمال والظمأ والشمس المتوهجة؟ ماذا يمكن أن يتواجد في الصحراء سوى هذا؟ أتمنى أن أرى أشجارًا أو ينابيع ماء صافية في المرات القادمة"

- "وناسًا؟"

- "ماذا؟"

- "ألا تتمنى أن ترى ناسًا؟ بشرًا؟ مثلي ومثلك!"

حقيقة لا أعرف..

- "مؤكد أن أي تائه في الصحراء يتمنى أن يلتقي ناسًا، الوحدة مرعبة في مثل هذه الظروف، على الأقل سأجد من يدفنني إذا لقيت حتفي.."

- "هل هذا ما تتمناه أنت في ذاك الموقف؟"

لا أعرف!

- "نعم.. أعتقد!"

الصمت من جديد! أتدرون ما وجه الشبه بين محقق النيابة والطبيب النفسي؟ أن كليهما يهوى توجيه الأسئلة على الدوام، الفرق: أن محقق النيابة يعرف ما يريد، ويعرف متى يكتفي، بينما الطبيب يبحث عما يريد أن يعرفه، ولا يكتفي حتى يحصل عليه!

أنا اخترتك أنت بالذات يا صديقي لأنك صديقي، لأنك تعرفني جيدًا منذ الطفولة والصبا، ولن تحتاج إلى توجيه كثير من الأسئلة، أتمنى حقًا أن أسمع منك شيئًا غير الأسئلة!

- "حسنٌ.. هذا التائه في الصحراء - الذي تحسه - لديه هدف واضح ومحدد، وهو: النجاة والحياة، لهذا يحاول حشد ما تبقى من قواه لينهض من جديد، أخبرني أنت: هل تريد حقًا النجاة والحياة؟"

- "!....."

***

هل جربت أن تعيش في بيت تسكنه الفئران يا صديقي؟!

الفئران.. تلك الكائنات الضئيلة المقززة المزعجة، لا أعرف لماذا خلق الله الفئران، أتفهم لماذا خلق الأسود والنمور والتماسيح بالرغم من أنها كائنات مخيفة مفترسة، لكن الفئران ...؟! لا.. ربما فائدتها الوحيدة أنها تستخدم في التجارب العلمية الطبية، ويضرب بها المثل في ذلك، يقال: فأر تجارب، لكنها حين تكون في بيتك لن تحمل لك أدنى فائدة، وإنما ستحمل لك الإزعاج والضرر، وستجد صعوبة كبيرة في التخلص منها، السم لا ينجح معها كل مرة، والمصيدة تنجح فقط في اصطياد فأر بدين شره، وتخفق مع الآخرين، والقطط لا تستطيع مطاردتها خلف الأثاث، ليس لك أمل في التخلص منها إلا بسد جحورها، لكنه أمل واهٍ على أية حال، لأنك كلما سددت جحرًا ستكتشف أنها صنعت لنفسها منفذًا آخر في مكان آخر!

أنا أكره الفئران، وأشمئز منها، ولا أخجل من اعترافي بأني أخشاها، أنا أكره حتى (ميكي ماوس)، وأكره ذلك المخبول (ديزني) الذي لم يجد سوى الفأر ليصنع منه شخصية قصصية كارتونية، وكان بإمكانه استعمال أي كائن آخر

لنفس الغرض!

لكن أتدري يا صديقي ما أشبه شيء بالفئران في حياتنا؟ الذكريات!!

نعم.. الذكريات.. إنها أيضًا فئران ضئيلة مزعجة ومخيفة، تنسل من جحورها بمرونة لتثير أعصابنا، وتبث في نفوسنا الخوف والقلق والنفور والهواجس، ولن تفلح في التخلص منها مهما فعلت، لأنك كلما سددت جحرًا لها، تمكنت من النفاذ إلى عقلك من جحر آخر، إنها تعرف دائمًا سبيلها للخروج!!

أنا هنا لكي أتخلص من فئران الذكريات، لكنك كل ما تفعله: أنك تعمل جاهدًا على فتح جحور لها لتخرج!! لو كنت أعلم هذا لما أتيتك، يفترض أن تساعدني أنا، لا الفئران!!

من فضلك ساعدني.. وأغلق تلك الجحور!!

***

- "أتدري يا بنيّ.. لا أريدك أن تكون معلمًا مثلي، أريدك أن تختار مجالاً آخر، ومستقبلًا آخر"

نظرت إليه بفضول وتساؤل، لا أدري ما منعني من طرح السؤال وقتذاك! لكني شعرت برهبة غريبة بعد أن قال تلك العبارة.. إنه الأستاذ (جاد) كما عهدته دومًا، ببنيانه الضخم، ورأسه الأصلع، ووجهه المستدير الممتلئ، وكرشه المكتنز، وعينيه الواسعتين، وجلده المتعرق دائمًا في الشتاء والصيف.

نظر إليّ بأسف وقال:-

- "نحن في بلد لا يحترم العلم ولا المعلمين، أنصحك بأن تجرب مجالًا آخر كالإعلام أو الأدب!"

الإعلام والأدب!!

كنت وقتذاك في الثالثة عشر من عمري، كل ما أعرفه عن الإعلام أن أكون

مذيعًا، مقدم برامج، هل هذا حقًا ما يريده لي معلمي؟ لماذا الإعلام والأدب بالذات؟

قال لي كأنه يحدث نفسه في شرود:-

- "الإعلام والأدب والقانون هم كهانة العصر الحديث، لكن دعك من القانون لأن طريقه صعب على مثلك، الإعلام كذلك طريقه صعب، لكن مستقبله أفضل، الأدب طريقه سهل لكنه غير مضمون، ويحتاج إلى موهبة وأشياء أخرى!"

لم أفهم! لم أفهم وقتها، وما زلت لا أفهم ذلك الآن! ماذا كان يقصد بكلمة "الكهانة"؟ وما زلت لا أفهم ذلك إلى الآن!

إنها فئران تخرج من جحورها دون مناسبة، وفي أوقات غير مفهومة أو متوقعة، تخرج فقط لتقرض وتزعج وتخرب، فئران لا أستطيع التخلص منها قط، أنا هنا لأتخلص من تلك الفئران يا صديقي الطبيب، لكنك كل ما تفعله: أنك تعمل جاهدًا على فتح جحور لها لتخرج!! لو كنت أعلم هذا لما أتيتك، يفترض أن تساعدني أنا، لا الفئران! من فضلك ساعدني.. وأغلق تلك الجحور!!

***

الفصل التاسع

العينان الغائرتان، الندوب الغائرة في أنحاء متفرقة من وجهه العريض، ذلك الشق الطولي في شفته العليا، تلك الرائحة النتنة التي أشمها دائمًا من بدنه كلما رأيته، إنه (أبرهة الأشرم) .. ما الذي يفعله هنا في هذا المكان؟

كنت في طريقي لزيارة صديقي (ناصر الباز)، لأصطدم به يجلس هناك على ذاك المقهى القريب من مسكن صديقي، وكان مظهره مختلفًا عن كل مرة رأيته فيها! كان يرتدي بدلة أنيقة بلون (الموكا)، تحتها قميص أبيض مخطط باللون الوردي، وبنطلون بنفس اللون، ولا ينقصه سوى رابطة عنق لتكتمل الأناقة، المشكلة أنه بالرغم من تلك الثياب الأنيقة لا يزال هو (أبرهة الأشرم) بهيئته الشرسة المرعبة بالنسبة لي على الأقل!

مرة أخرى: ماذا يفعل هنا؟ ولماذا يتواجد بالقرب من مسكن صديقي (ناصر الباز)؟!

هو أيضًا تفاجأ برؤيتي أقف في عرض الطريق أنظر إليه مبهوتًا، لكنه تخلص من المفاجأة بسرعة، ونهض قائمًا وقال بترحيب ودود:-

- "(مختار) صديقي العزيز، يالها من مفاجأة سارة، هلم.. تعال اشرب معي القهوة، إنهم يقدمون قهوة ممتازة هنا!"

أجفلت في مكاني، وازداد قلبي خفقًا واضطرابًا، لكنه عاد يشير إليّ بقوة كي أتوجه إليه، فحركت أقدامي بصعوبة تجاهه، رحب بي مرة أخرى، وهيأ لي مقعدًا لأجلس بجواره، وهو لا يزال يبتسم بترحيب ودود، وحين أتى النادل قال له باحترام:-

- "(عثمان) باشا.. تحت أمرك"

(عثمان) باشا!! ما الذي يحدث هنا؟

تنبهت في هذه اللحظة إلى أن (أبرهة) اسمه بالفعل (عثمان)، لكن باشا!! ماذا يعني هذا؟!

فوجئت به يسألني:-

- "كيف تريد قهوتك؟"

أجفلت مرة أخرى، ثم قلت مرتبكًا:-

- "مضبوطة"

أشار للنادل بأصبعين اثنين، كأنه يطلب فنجانين لا واحد، وأومأ النادل برأسه في توقير، ومضى سريعًا ليلبي الأمر، فالتفت إليّ (أبرهة) وقال هامسًا:-

- "هم يعرفونني باسم (عثمان) باشا، ضابط جيش متقاعد، فلا تفسد الأمر!"

ضابط جيش!!

استطرد وهو يشير إلى وجهه:-

- "كيف كنت لأفسر تلك الندوب بوجهي؟ أنا ضابط صاعقة، أو هكذا كنت قبل التقاعد، هل تفهم؟!"

أومأت برأسي في وجل، فعاد يسألني:-

- "ماذا تفعل هنا؟"

يفترض أنا أن أسأله هذا السؤال، لكني ابتلعت ريقي وأجبت بحذر:-

- "لي صديق يسكن هنا، جئت لزيارته!"

وأشرت إلى لا مكان، فأومأ برأسه متفهمًا، ثم عاد يقول هامسًا:-

- "أما أنا فلي صديقة تسكن هنا"

ثم غمز بعينه، وأضاف:-

- "أو حبيبة قديمة إن شئت الدقة!"

حقًا؟ هكذا الأمر إذن، لكن هل يفترض أن أصدق هذا؟ لا شيء يضمن لي صدقه، وأخشى أن يكون يدبر شيئًا ما لصديقي الطيب!

- "أريد منك خدمة"

على الأقل يحادثني بأدب ورقي، أنا دون غيري من البشر، هذا قد يكون مطمئنًا إلى حد ما، لكن مع شخص مثل (أبرهة الأشرم) لا يمكنك ضمان أي شيء، إذ ربما بعد دقيقة فقد أعصابه لسبب ما، وفي جزء من الثانية ستجد مطواته الحادة المخيفة مشهورة في وجهك، ثم قد لا ترى شيئًا بعدها، لأنه يستهدف الأعين أول شيء حسبما سمعت عنه مرارًا!

- "تحت أمرك!"

عبارة روتينية، أقولها لكل من يقصدني من الزبائن، لكني هذه المرة كنت أعنيها بالفعل..

- "سأخبرك بها حين نقوم من هنا، اشرب قهوتك سريعًا.."

في أقل من دقيقتين كانت القهوة أمامنا، أما هو فقد تجرع فنجانه في رشفتين، وأما أنا فلم آخذ سوى رشفة واحدة، ولم أتمكن من إضافة المزيد، كنت قلقًا بشدة، وقلبي يخفق بقوة، وأتوقع الأسوأ، وإن كنت لا أدري ما هو الأسوأ الذي يمكن أن يحدث.

بعد دقائق سألني وهو ينهض قائمًا:-

- "هل شربت قهوتك؟ جيد.. لنذهب من هنا!"

ولم أملك إلا أن أنهض معه وأنا أرتعد رعبًا..

#اقتباس

"فجأة تنبه (محمود) إلى حقيقة أن الحياة كلها ما هي إلا سلسلة طويلة من المقايضات المتوالية، كل شيء في حياتنا بمقابل، حتى المشاعر النبيلة، نحن نشعر

بالحب والولاء لآبائنا وأمهاتنا مقابل ما يحفوننا به من رعاية وحنو ونفقة وإعالة منذ أن جئنا إلى الدنيا، ولا نشعر بذات الحب والولاء للآباء والأمهات الآخرين، لأنهم لم يمنحونا شيئًا.. كما أننا نحمل كل هذا الود والإخلاص لأحبتنا وأصدقائنا نظير ما نحصل عليه منهم من وفاء ومودة وصيانة، ونتخلى عن الود والإخلاص لهم إن حرمونا هذه الأشياء..

كل شيء في حياتنا بمقابل، لا شيء يحصل إلا بمقايضة.."

من قصة (مقايضة) – للكاتب: (ناصر الباز)

إنه الغضب.. ذلك الشعور الهادر الذي يملأ جوفنا في لحظة ما، ويظل يتضخم ويتمدد حتى يتدفق إلى الخارج، كحمم بركان ثائر، حين تتسارع نبضات القلب، وترتفع مستويات الأدرينالين والنورادرينالين، كاستجابة من المخ لتهديد خارجي محتمل، ويظل يبحث عن استجابة فسيولوجية ملائمة للموقف! في هذه اللحظة بالذات أيقنت أن الغضب هو ما أحال (أبرهة) – صديق الطفولة – إلى ما هو عليه، وجعل منه كائنًا شرسًا بغيضًا لا يطاق.

المدهش أن كلينا نشأ في ذات الظروف الاجتماعية والاقتصادية: الفقر – اليتم – العوز – اليأس – البؤس... إلى آخر هذه المفردات القاهرة، لكني تعايشت مع كل هذا، لا أدري كيف فعلت ذلك، لكني تعايشت، أما (أبرهة) فخرج من كل هذا بالغضب، الغضب الهادر الموجه ضد كل شيء، وضد كل شخص.. وهذا ما يجعلني لن أندهش لو حانت لي فرصة لأراه يهدد إنسانًا، أو يشجه، أو يفقأ عينه، أو حتى يقتله..

إنه الغضب الذي يبحث عن أية مناسبة ليتدفق إلى الخارج، والضحية مجرد شخص سيئ الحظ تواجد أمام الشخص الخطأ! ترى هل يمكن أن يفعل هذا بصديقي (ناصر الباز)؟

ابتعدنا عن المقهى بخطوات ثابتة من جهته هو، ومتعثرة من جهتي أنا، سرنا في الشارع الرئيس قليلًا قبل أن ينحرف بنا إلى شارع جانبي يبدو مسدودًا في نهايته، تعمقنا فيه بضعة أمتار قبل أن يتوقف هو، وأتوقف أنا بالتبعية، وواجهني قائلًا:-

- "قل لي الحقيقة: ماذا تفعل هنا؟"

هو من لا يصدقني؟ فماذا عني أنا؟ ابتلعت ريقي للمرة العشرين، وأجبت بصوت مضطرب:-

- "صديقي (ناصر الباز) الذي تحدثنا عنه، يسكن هنا قرب المقهى الذي التقيتك به"

رفع إحدى حاجبيه في دهشة، وقال:-

- "حقًا؟ لم أكن أعرف هذا، لكنه أمر جيد.."

جيد من أية زاوية بالضبط؟ لم أجرؤ على السؤال، لكنه أضاف قائلًا:-

- "إذن لنذهب إليه سويًا، ما لم تكن لديك أو لديه خطط أخرى"

لم أدر بم أرد على هذا، فهززت كتفيّ دون أن أنطق، في الواقع لا أريد أن أكون موجودًا في لقائهما، وفي ذات الوقت أخشى على صديقي (ناصر) منه، وامتلأ قلبي رعبًا الآن وأنا أتخيل هذا اللقاء يتم في هذه الساعة! ويبدو أنه اعتبر الأمر قد حُسم، إذ انتقل إلى نقطة أخرى، فقال:-

- "اسمعني جيدًا.. هناك امرأة عرفتها قبل عشرين عامًا، ثم دخلت السجن وانقطعت صلتي بها، ولم أرها منذ ذلك الحين حتى عرفت بالصدفة أنها تعيش في هذا الحي، في تلك البناية التي تواجه المقهى الذي كنا عليه منذ قليل"

غمز بعينه قبل أن يضيف:-

- "متزوجة هي الآن، ولديها طفلان كبيران، وزوجها يعمل بوظيفة جيدة

بإحدى الشركات.."

حسنٌ.. لماذا يحكي لي هذا كله؟

تنهد بعمق، قبل أن يقول:-

- "أريد استعادتها!"

ماذا؟ يا إلهي! إنه هنا ليس من أجل (ناصر الباز) حقًا، لكن كيف يستعيد امرأة متزوجة وتعيش حياة مستقرة مع زوجها وأولادها؟ هذا مرعب، لكن ثمة جانب آخر غير طبيعي بالمرة، وهو فكرة أن (أبرهة الأشرم) يحب! أو سبق له أن أحب، وما يزال محتفظًا بهذا الحب، ويريد أن يقاتل من أجله! أظنه دافعًا كافيًا بالنسبة لمثله كي يرتكب جريمة شنيعة!

لكنه قال بكياسة:-

- "أستطيع أن أقتله بالطبع.. بل أستطيع أن أفعل به ما هو أسوأ من القتل، لكني لا أريد أن أراها تبكيه حزنًا عليه، كما لا أريدها أن تنظر إليّ كقاتل!"

يا لها من معادلة صعبة، ما الحل إذن؟ سدد بصره في عينيّ مباشرة، وهو يستطرد:-

- "أريده هو أن يتخلى عنها، لأحل أنا مكانه، أو أن تتخلى هي عنه.."

يا لها من استراتيجية، أعجب كيف لشخص كـ (أبرهة) أن يفكر فيها، وأستبعد أن يكون شخص ما أرشده إليها، الأمر محير بالفعل، وعجيب لأقصى مدى!

علميًا – حسبما قرأت ذات مرة –: الحب لا يختلف كثيرًا عن المخدرات، ثمة منطقة في الدماغ تعدّ أحد المكونات الرئيسة لنظام المكافأة في الجسم، هذا النظام الذي يوفر الشعور باللذة في حالات معينة، لتعزيز السلوكيات المختلفة التي يعرفها الجسم كمرغوبة ويريد الاستمرار بها، هذه المنطقة تنشط عند الوقوع في الحب وتفرز مادة الدوبامين، التي تسبب الشعور بالمتعة، وهو ذاته ما يحدث

عند تعاطي المخدرات! هناك أيضًا منطقة النواة المتكئة، وهي التي تنشط بشكل خاص لدى الأشخاص الذين تعرضوا لانفصال عاطفي حاد، أو ما نسميه بانكسار القلب، وتأثيرها يوازي شعور المدمن على المخدرات عند محاولة الإقلاع عنها!

(أبرهة) له باع طويل، وتاريخ عريق مع المخدرات، لكن الجديد بالنسبة لي أن يكون له تاريخ مع الحب، والظاهر لي منه أن منطقة النواة المتكئة لديه في ذورة نشاطها الآن.

قال وهو يمسح فاه بظاهر يده بخشونة:-

- "لقد أحببت مرتين فقط في حياتي.. إحداهما ذهبت ولا أعرف عنها شيئًا الآن، لكن الأخرى أمامي من جديد، وهذه المرة لن أضيع الفرصة!"

وأخرج جوالًا حديث الطراز، أنيق المنظر، وعرض عليّ صورتين فيه، إحداهما صورة قديمة لفتاة نحيلة الوجه، بريئة الملامح، على قدر لا بأس به من الجمال، تبدو في العشرين من عمرها أو نحو هذا، أعتقد أنها .....، والصورة الثانية حديثة لامرأة تبدو في الأربعين، إنها هي.. نفس الفتاة صاحبة الصورة الأولى.. بعد أن ترك الزمان أثره عليها، وإن كانت لا تزال على قدر من الجمال!!

لا أدري بم أشعر الآن، لكن أي شيء يمت لـ (أبرهة) بصلة يصيبني بالرعب، والآن لا أعرف لماذا يخبرني بكل هذا! وما الدور الذي يريد أن يمنحنيه في هذا الوضع المعقد، وأنا بالتأكيد لا أريد أن يكون لي أي دور في أي شأن يخص هذا الشخص!

قال لي وهو يغمز بعينه مرة أخرى:-

- "أنت ستساعدني على استعادتها!"

ماذا؟!

الفصل العـــــاشر

رنين الجوال! غريب هذا! لم يحدث أن سمعت رنين الجوال منذ عام تقريبًا، حتى على سبيل الخطأ، منذ أن اعتزلت الناس، وغيرت رقمي القديم، ومن يعرفون رقمي الجديد لا يتصلون بي، أنا الذي أتصل بهم للضرورة، إنه رقم غريب غير مسجل!

لن أرد على هذا، في الغالب سيكون اتصالًا عن طريق الخطأ، من شخص يعتقد خطأ أني شخص آخر، أو اتصال من شخص يعرفني من بعيد، وفي كلتا الحالتين لا أرغب في محادثة ذلك المتصل، وليس لديّ أدنى فضول حتى لأعرف من هو!

لحسن الحظ لم يرن سوى مرة واحدة، واكتفى بهذا، كان الوقت عصرًا، وكنت صاحيًا لتوي من النوم بعد سهر طويل امتد إلى شروق الشمس، لكن الرنين عاد مرة أخرى مع الغروب، ذات الرقم المجهول، هل أتجاهله مجددًا؟ لو تجاهلته هل سيستمر في الرنين من وقت لآخر، هل ثمة احتمال ولو ضئيل أن يكون اتصالًا ذا فائدة لي؟ هل ثمة احتمال ولو ضئيل أن يكون اتصالًا يحمل نبأ مزعجًا؟

لن أرد.. لن أرد مطلقًا، سأراهن على أنه سيصيبه اليأس مني ويكف عن الاتصال بي!

- "هذا أنت؟ سيد (مختار)؟"

صوت أنثوي مألوف، أظنني سمعته من قبل، لكن أين ومتى؟

- "نعم.. إنه أنا.. من أنت؟"

لست بارعًا في الرد على الهاتف، لست بارعًا في الرد عمومًا على أي كلام يوجه إليّ!

- "أنا (نادية)، هل تذكرني؟"

(نادية) من؟ لا أذكر أحدًا بهذا الاسم قط!

- "(نادية) الصحافية.. قسم الحوادث.. المقابلة مع السفاح!"

يا إلهي! تذكرت الآن، إنها تلك المرأة البدينة التي تحضر معنا جلسات د. (نجيب)!

ماذا تريد مني؟ وكيف عرفت رقم جوالي من الأساس!

- "أنا صحافية كما تعرف، نحن نعرف كيف نحصل على أرقام الآخرين"

مؤكد أن د. (نجيب) أعطاها رقمي، لماذا يفعل هذا؟

- "لا.. ليس د. (نجيب) صدقني، إنه يحفظ سرية بيانات زبائنه جيدًا، بل هو صارم جدًا في هذه الناحية.. لكن دعك الآن من مسألة الرقم، لقد حصلت عليه بطريقتي، هل يناسبك أن نتحدث الآن؟"

لا.. لا يناسبني الآن، ولا فيما بعد.

ماذا تريد هذه المرأة مني بالضبط؟

- "لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ هل كان لك أية علاقة بأية أنثى في الماضي؟"

ما دخل هذا بما أعانيه؟ د. (نجيب) يسأل أسئلة غريبة، وبعيدة عن السياق جدًا!

-"لا يوجد شيء بعيد عن السياق، نحن لا ننهار من الصدمات، بل ننهار إذا لم نجد من يدعمنا أمامها، ولا أحد بوسعه أن يدعمنا نحن الرجال مثلما النساء، وأنت حياتك خاوية تمامًا من النساء!"

أنت مخطئ يا صديقي، لا شيء بوسعه أن يقهرنا نحن الرجال مثلما تفعل

النساء!

قالت وهي تقضم قضمة صغيرة من فخذ الدجاجة الذي أمامها بالطبق:-

- "لقد علمونا في صغرنا أن نكون جبناء، وزرعوا بداخلنا الخوف من العفاريت والحيوانات والحشرات، ولم يعلمونا أن نواجه مخاوفنا ونتغلب عليها"

الموسيقى هادئة، الإضاءة أيضًا هادئة، الطاولات متراصة بتنسيق جيد، على مسافات مناسبة، إنه مطعم فاخر في حياتي لم أدخل مثله، يفترض أن هذا المكان مريح للأعصاب، لكني متوتر للغاية، أشعر بشعور الفأر الذي حبس في مصيدة، لماذا أطعت هذه المرأة وجئت إلى هنا؟ لماذا؟!

- "إنهم يخافون علينا أكثر من اللازم، يخافون علينا بشكل يؤذينا أكثر مما يفيدنا!"

هل جاءت بي إلى هنا لتلقي عليّ محاضرة عن الطريقة الصحيحة لتربية الأبناء؟ إنها صحافية حوادث، ما لها وهذه الأشياء التي تحكي عنها، وما شأني أنا لأصغي إلى هذا الهراء، ثم إن كلينا لم يتزوج بعد، ولا يبدو أن أحدنا سيتزوج فيما هو قادم، وبالتالي لا معنى لتلك المحاضرة، إنه خطئي من البداية، كان ينبغي أن أرفض هذا اللقاء. سوف أسألها مباشرة، بدون مواربة:-

- "لماذا طلبتِ لقائي في هذا المكان؟"

ابتسمت وفمها يمضغ الطعام، ثم قالت:-

- "لماذا طلبتُ لقاءك في هذا المكان؟ أم لماذا طلبتُ لقاءك أنت بالذات؟"

إنها تتحاذق، لا يعجبني هذا، أكره الأشخاص الذين يتحاذقون، لا سيما من جنس النساء!

- "كليهما في الواقع"

لن أخجل منها، من الواضح أنها وقحة، لم تتردد في دعوة رجل غريب لا تعرفه

إلا من جلستين عند طبيب نفسي، ولا تخجل من أن تأكل أمامه بهذه الشراهة! عادت تبتسم وهي تقول:-

- "أنا لست شرهة كما يمكن أن تعتقد، فقط أنا لم يكن في حياتي قط رجل أعتني بقوامي ورشاقتي من أجله، لقد أغلقت هذا الباب اختيارًا في وجوه الرجال، انظر!"

ومدت يدها داخل حقيبتها لتخرج صورة فوتوغرافية متوسطة، ألقتها أمامي، وهي تشير إليّ مشجعة كي أطالعها، أمسكت بالصورة بتردد، ونظرت فيها.. إنها هي.. هي في شبابها، أعتقد أن الصورة لها قبل عشرين عامًا مضت، كانت جميلة ورشيقة وقتها، أو لنقل جميلة إلى حد ما، أجمل بكثير مما هي عليه الآن!

- "ما رأيك؟"

أعتقد أنها تستدرجني لأتغزل فيها، وأخبرها كم كانت جميلة، وبالطبع لن تدرك أن هذا الغزل سينطوي على تنقص لحالها ومظهرها الذي هي عليه الآن! لكني لن أعطيها ما تريد على أية حال، لست أنا من يتغزل بأنثى بدينة تكاد تعادله في العمر حتى لو كانت هي التي دعته للعشاء في مطعم فاخر مثل هذا!

أعدت إليها الصورة بصمت، ويبدو أنها لم تعبأ بصمتي، ولم تشعر بالإهانة حتى! أشارت إليّ قائلة:-

- "أنت على العكس، يبدو أنك لا تأكل كثيرًا، ربما لا تأكل على الإطلاق، هذا الشحوب والنحول.. يا إلهي!"

مالت تجاهي بوجهها، ونظرت في عينيّ مباشرة وقالت:-

- "أعتقد أنك تريد أن تقتل بهذه الطريقة!"

تراجعت مرة أخرى للخلف، واستطردت:-

- "لا أنصحك بهذا، من يرد الانتحار فليختر طريقة سريعة وفعالة، السم

مثلًا.. الطرق البطيئة مرهقة، ومثيرة للتردد والإحجام!"

يا إلهي! كيف لم أفكر في السم من قبل؟! قلت بصرامة:-

- "أنا لا أريد أقتل نفسي.. ليس إلى هذا الحد، كلنا نعاني من مشاكل نفسية، لكننا نتجاوزها على أية حال، لهذا قصدت د. (نجيب)، وأعتقد أنك ذات الشيء"

قابلت صرامتي بابتسامة عريضة، لم تلبث أن انقلبت إلى ضحكة تلذذ، ثم قالت:-

- "اهدأ.. وتناول طعامك، ليس من اللطف أن تتركني آكل وحدي وأنت تنظر.."

فهمت الآن.. هذه المرأة تميل إلى السيطرة، إنها رئيسة قسم الحوادث بالجريدة التي تعمل بها، وحتمًا يتلقى الجميع الأوامر منها وينصاعون لها، لقد أدمنت هذا، وتريد أن تتوسع في الأمر خارج دائرة عملها، وقد وقع اختيارها عليّ لتشبع تلك الشهوة بداخلها.. شهوة السيطرة أقصد!

قالت وكأنها تقرأ أفكاري:-

- "أعتذر.. أنا لا أميل إلى توجيه الآخرين بهذا الشكل، افعل ما يحلو لك"

ثم انكفأت على طبقها تواصل التهام فخذ الدجاجة. فغمغمتُ قائلًا:-

- "لا بأس.. أنا أميل أحيانًا لقراءة كتب الإرشادات"

فوجئت بها تضحك بصورة غير متحفظة لأول مرة، ضحكت بصورة لفتت أنظار الجالسين بالقرب منا، لكنهم اكتفوا بالنظرات الخاطفة، قبل أن يشيحوا بعيدًا، بينما قالت وهي تشير نحوي بالشوكة التي في يدها:-

- "أنت ظريف حقًا، يروقني هذا كثيرًا"

ازداد توتري في تلك اللحظة، وخشيت أن أفقد أعصابي، وخشيت أكثر مما

يمكن أن يحدث بعد أن أفقد أعصابي، في أهون الأحوال سأكتفي بصفعها ومغادرة المكان! سألتها مباشرة:-

- "لم أعرف بعد لماذا طلبت لقائي؟"

توقفت عن الضحك، كما توقفت عن مضغ الطعام في فمها، وقالت بهدوء:-

- "أتفهم عدوانيتك ونفورك مني، وأتقبل هذا.. ولن أصعّب الأمر علينا أكثر، أنا هنا لأحكي لك أنت ما لم أقدر على حكيه للآخرين في تلك الجلسة.."

سكتت للحظة ثم أضافت:-

- "أنا لم أحك كل شيء عن ذلك السفاح!"

هل تظن أنها بهذا ستثير اهتمامي؟ أنا لست مهتمًا بالمرة بأمرها، ولا بأمر ذلك السفاح، ولا أذكر حتى ما الذي حكته في المرة السابقة أمام الجميع، أنا مهتم فقط بمعرفة لماذا اختارتني أنا بالذات لتختصني بهذا الهراء!

ثمة احتمال وثب إلى ذهني في تلك اللحظة: أيعقل أن تكون حاولت التواصل مع آخرين ممن حضروا تلك الجلسة، وأنا الأبله الوحيد الذي لبَّيتُ دعوتها؟! أو ربما لباها آخرون، لكنها لم تكتف بواحد فقط.. إنها أنثى عزباء تجاوزت الأربعين من عمرها، بدينة على درجة متوسطة من الجمال، تعيش وحيدة، ليس لها صديق أو حبيب، تعاني من الاكتئاب، وقد شجعتها جلسات د. (نجيب) على التواصل مع الآخرين، وهكذا بدأت تصطادنا واحدًا تلو الآخر، ترى ما ترتيبي بينهم بالضبط، وهل يبهجني أن أكون الأول، أو يسوؤني أن أكون الأخير؟

قالت لي وهي تعاود التهام فخذ الدجاجة:-

- "ما لم أخبركم به هناك: أني أغرمتُ بذاك السفاح!"

راحت تمضغ الطعام في فمها، وتمضغ معه كلماتها وهي تستطرد:-

- "لقد أحببته حد الجنون! وهذا سبب وعكتي النفسية!"

- "........................!"

الفصل الحادي عشر

شعره أشيب تمامًا، لا توجد شعرة واحدة سوداء، الوجه مستطيل حليق، مغضن بالتجاعيد العميقة، العينان سوداوان واسعتان، لكنهما غائرتان، البشرة قمحية، الثياب أنيقة للغاية، كأنه في حفل رسمي، ليس ثريًا لكنه مهندم بشكل جيد، أعتقد هذا الرجل أديب أو فنان بكل تأكيد، لا أدري أي نوع من الأدب أو الفن، لكن كل شيء في هيئته يوحي بذلك!

– "مرحبًا. أنا (أمجد الشاعر)، عازف بيانو بالأوبرا.."

حتى صوته رخيم هادئ، إنه أكثر الحاضرين اتزانًا وتماسكًا، حتى أني لأتساءل: ماذا يفعل هنا؟ إن كان هذا شخصًا مريضًا أو مضطربًا فليس على وجه الأرض شخص سويّ على الإطلاق!

قال مازحًا:–

– "اعذروني إن لم أتحدث بشكل سليم، فأنا معتاد على التحدث بأصابعي لا بلساني!"

وحرك أصابع في يديه في الهواء، فضحك الجميع فيما عداي بالطبع، إنه عازف بيانو، فنان كما توقعت، وكان هذا الشيء الوحيد الذي أثار فضولي، والآن لم تعد بي رغبة لسماع أي شيء إضافي.

– "في الواقع عملي لا يقتصر على حفلات الأوبرا، فأنا أقوم أيضًا بإعطاء دروسًا خاصة في عزف البيانو للمهتمين أو الراغبين في تعلم هذا، كما أن بعض الهواة الأثرياء يطلبونني في بعض المناسبات الخاصة لعزف إيقاعات الفالس الراقصة والرومانسية، ومهما حكيت لن تتخيلوا روعة إيقاعات الفالس على البيانو!"

ثم قطع حديثه وراح يدندن نغمة راقصة بفمه المزموم، وهو يطوح برأسه يمينًا ويسارًا، وأصابعه تعبث في الهواء كأنه يعزف بيانو غير مرئي، اللحن مألوف بالنسبة لي، أعتقد أني سمعته من قبل، لكن لا أذكر بالتحديد! توقف عن الدندنة، وعاد للحكي قائلًا بشيء من الإغراء:-

- "إنه (الدانوب الأزرق) لـ (شتراوس)، من أجمل إيقاعات الفالس التي يمكنكم سماعها، والرقص عليها"

ثم استطرد بنبرة مختلفة:-

- "لكني مع ذلك مغرم بـ (شوبان) أكثر من (شتراوس)، وأحب كثيرًا أن أعزف مقطوعاته على البيانو، (المقطوعة الحالمة)، (عالم آخر)، (ذكريات الماضي)، وغيرها من المقطوعات الرائعة، يمكن القول إن (شوبان) أكثر موسيقي أعطى آلة البيانو حقها على الإطلاق، لقد خلف هذا الرجل العديد من الروائع، لم أكن أتمنى أن أعيش حياته، إلا أني عشت قريبًا منها بالرغم من ذلك.."

أعتقد أنه لا أحد من الجالسين يعرف عمّ يتحدث، أرى الجهل في عيونهم، لكن بجانب الجهل يوجد فضول لمعرفة معاني ما يقول، ولديهم تساؤلات تمنعهم صرامة قواعد د. (نجيب) من الإفصاح بها، وينتظرون الوقت المسموح بفارغ الصبر..

أنا أعرف الفالس، وأعرف (شوبان) و(شتراوس)، وإن كنت لم أستمع إليهما من قبل قط، إنها معلومات عامة حصلت عليها وقت أن كنت مهتمًا بالقراءة والاطلاع. وربما معرفتي بما يحكي عنه هي التي تجعلني أشعر بكل هذا الضجر..

عاد الأشيب يقول:-

- "كنت متزوجًا في مرحلة ما من حياتي، وأنجبت طفلًا لم أعد أراه، وهو لا

يسأل عني مطلقًا، لكن بما أني أعرف أنه ناجح في حياته فلا بأس، وليس لديّ ما أمنحه إياه على أية حال"

شرد بصره بعيدًا وهو يستطرد:-

- "معظم الموسيقيين فاشلون في حياتهم الشخصية، (شوبان) نفسه ارتبط بـ (جورج ساند) حوالي عشر سنوات، ولم يحصل عليها في النهاية، ومات وحيدًا، بدأت أدرك أن قدر الموسيقيين أن يعزفوا الحب دون أن يحصلوا عليه، كالطهاة الذين يطهون أطيب وأشهى الوجبات ولا يتناولونها!"

قال هذا ثم لاذ بالصمت، وعيناه تحلقان بعيدًا في الفراغ، والباقون ينتظرون أن يقول شيئًا، لكنه ظل صامتًا لفترة طويلة، حتى قطع الصمت د. (نجيب) متسائلًا:-

- "هل انتهيت يا سيد (أمجد)؟"

أفاق الأشيب من شروده، وقال:-

- "نعم.. أعتقد أني انتهيت.."

ثم استطرد بنبرة غريبة كئيبة:-

- "انتهيت منذ زمن بعيد!"

تيييييرارا.. رارا.. رارا.. تيييييرارا.. رارا.. رارا..

الإضاءة ليست قوية، لكن يمكن الرؤية من خلالها بوضوح، حتى من تلك الثقوب الضيقة! جسد رشيق يروح ويجيء، يظهر ويختفي، يتقدم ويتأخر، ويدور حول نفسه في إيقاعات منتظمة، ذراع تلتف في الهواء على شكل نصف دائرة، كأنها تطوق جسدًا غير مرئي، وذراع أخرى معلقة على مستوى أعلى، كأنها تستند على كتف شفاف خفي، والإيقاع الراقص مستمر في الدفق، والحركة الرشيقة مستمرة في مواكبة الإيقاع.. تيييييرارا.. رارا.. رارا.. تيييييرارا.. رارا..

رارا..

صوت (شوقي) يهمس في أذني:-

- "هل تراها جيدًا؟"

أومأت برأسي دون أن أنطق، حتى وأنا أومئ برأسي لم تفارق عيني فرجة ذلك الثقب الضيق في النافذة الأرضية، وحدقتي تتابع الجسد الرشيق وهو يتحرك في خطوات منتظمة تواكب الإيقاع الموسيقي، يروح ويجيء، يظهر ويختفي، يتقدم ويتأخر، ويدور حول نفسه في نعومة وخفة!

كنت صبيًا في الخامسة عشر، لم أكن سمعت يومها عن شيء اسمه الفالس، ولا لحن اسمه (الدانوب الأزرق)، ولا موسيقي اسمه (شتراوس).. فقط كنت أعرف أنها (سامية) ابنة الحاج (توفيق الجزار) من إحدى زوجاته الثلاث، طالبة بالجامعة، تناهز العشرين، ذات قوام رشيق مثير، ووجه ساحر فتان، وصوت في غاية العذوبة، اجتمع فيها من السحر والأنوثة ما لم أره في أية أنوثة أخرى وقع عليها بصري في حياتي، إنها تشبه نجمات السينما الأجنبية لا العربية.

(شوقي) هو الذي رآها أولًا، لقد اعتاد أن يتسلل إلى ذلك الفناء الخلفي المهجور خلف بيت الحاج (توفيق) ليدخن السجائر دون أن يراه أحد، ذات ليلة كان هنا ينفث الدخان من فمه ومنخريه بشراهة، حين سمع صوت الموسيقى، ورأى شعاعًا من الإضاءة الهادئة يتسلل من بعض ثقوب تلك النافذة التي تكون مغلقة معظم فترات اليوم، وهو لا يجسر على التسلل إلى هذا الفناء إلا إذا اطمأن إلى أن جميع النوافذ التي تطل عليه مغلقة، لا سيما نوافذ الطابق الأرضي، قال لي بنشوة:-

- "اقتربت لأنظر، ليس فضولًا، بل كنت أخشى أن يكون هناك أحد بالغرفة فيراني هنا، أنت تعرف ماذا سيحدث لي من صبيان الحاج (توفيق) لو ضبطوني

هنا، وظنوا أني جئت لأسرق، أو أختلس النظر إلى حريم الدار!"

اتسعت عيناه بطريقة غريبة وهو يضيف:-

- "نظرت من الثقب فرأيتها ترقص، رقصًا شرقيًا على أغنية (عبد الحليم): (جانا الهوى جانا)، كادت عيوني تقفز من مكانها، وسال لعابي، أووووووف، ما أجملها!"

وأغمض عينيه وهو يتنهد في نشوة وإثارة، ثم استطرد:-

- "صرت أجيء كل ليلة أراقبها وهي ترقص، أحيانًا ترقص رقصًا شرقيًا، وأحيانًا ترقص كأنها تحتضن شخصًا وتدور معه حول نفسها، لا أستطيع أن أفوت ليلة دون أراها!"

تيييييرارا.. رارا.. رارا.. تيييييرارا.. رارا.. رارا..

(شوقي) صديق الطفولة والصبا، لكنه أكثر انفتاحًا مني على الحياة، طرقنا أعتاب البلوغ والمراهقة معًا، لكنه هو الذي كان يأتيني بالمجلات والصور الإباحية، وهو الذي كان يصحبني إلى بيت صديقنا (عاطف) لنسهر حتى وقت متأخر، بحجة أننا نذاكر، بينما نحن نقضي الليل أمام الفيديو الذي أتى به والده من الخليج، نشاهد الرجال والنساء وهم يمارسون الجنس بشكل فاضح، ونكتم الصوت إلى أدنى درجة مسموعة، مستغلين كون والد (عاطف) لا يزال يعمل بالخليج، وأمه وأخواته ينمن كالدجاج قبل العشاء، وهو أيضًا الذي علمني الطريق إلى الفناء الخلفي لدار الحاج (توفيق)، لكني لم أكن أذهب إلى هناك كل ليلة مثله، لأني كنت أخشى فكرة ضبطنا هناك ونحن نتلصص على تلك الفاتنة وهي تفرغ انفعالاتها في الرقص، كما أني لم أذهب إلى هناك بمفردي أبدًا لذات السبب.

تيييييرارا.. رارا.. رارا.. تيييييرارا.. رارا.. رارا..

كنت أرى (سامية) وهي ذاهبة إلى – أو عائدة من – الجامعة، تسير في الحي باحترام واحتشام، ترتدي ملابس أنيقة لكنها محتشمة، وتحيط رأسها بحجاب أنيق يناسب لونه دائمًا لون بقية الثياب، وتمسك في يدها بعض الدفاتر الأنيقة، وتسير وهي تطرق برأسها إلى الأرض في حياء، فأبتسم وأنا أتخيلها وهي تتخلى عن ذلك المظهر الوقور في خلوتها، وترقص وتتلوى على أنغام الموسيقى، تروح وتجيء، تظهر وتختفي، تتقدم وتتأخر في خطوات منتظمة تواكب الإيقاع الموسيقى، ذراعها تطوق الهواء، والأخري عالقة فوق كتف غير مرئي..

السؤال الذي نشب في عقلي لفترات طويلة بعد ذلك: من يكون ذلك الشخص غير المرئي الذي تتخيله وترقص مع طيفه؟ زميل لها بالجامعة، أستاذ أو معيد، جار أو قريب؟ الفضول يلتهمني التهامًا لمعرفته، وفي قرارة نفسي أحسده، وأود بشدة لو كنت أنا ذلك الموعود، بالرغم من ثقتي من أن هذا محال، لأني بالنسبة لها مجرد طفل أصغر منها بأعوام! أنا جارها في الحي، ووالدها يعطف على أمي على أوقات متباعدة ويغدقها بقطعة لحم على سبيل الصدقة، لكني كنت أتساءل في شك ولهفة: هل هي تعرفني؟ هل تعرف اسمي أو حتى شكلي؟ هل يمكن أن تلقاني يومًا في طريق مصادفة فتلقي عليّ التحية وهي تبتسم؟ أعتقد أن الإجابة عن كل هذا: لا..

هي خارج دارها ليست سوى طالبة جامعية مهذبة محتشمة، تسير مطرقة إلى الأرض، لا ترى أحدًا من حولها، ولا تعرف أحدًا، وأنا لست سوى صبي مراهق يلهو مع أصدقائه المعدودين، ويخجل من محادثة الغرباء الذين لا يعرفونه سوى باعتباره ابنًا يتيمًا من أفقر بيوت الحي الفقير أصلاً!

تيييييرارا.. رارا.. رارا.. تيييييرارا.. رارا.. رارا..

تبًا! إنه (الدانوب الأزرق) لـ (شتراوس)! عرفت ذلك الآن!!

انتبهت بغتة إلى نظرات د. (نجيب) الصارمة، كأنه يقول لي:-

- "هلم قل شيئًا أيها الوغد، هل يتعين عليّ كل مرة أن أطالبك بالمشاركة في الحديث؟"

وانتبهت إلى أن ذلك الموسيقي الأشيب قد انتهى من حكيه منذ زمن، وتناقش جميع الحضور فيما حكاه باستثنائي أنا، ولم أعِ أي شيء مما قالوه بالطبع!

ماذا أقول الآن؟

- "أنا لست من عشاق الأوبرا، ولا أعرف شيئًا عن الفالس، أو (شوبان)، أو (شتراوس).. أقصى ما أعرفه ويستهويني من هذا كله: موسيقى (عمر خيرت) التصويرية!"

هذه المرة كانت نظراتهم جميعًا صارمة، يبدو أني أسأت التعبير، أو أحسوا بإهانتي للمتحدث، ماذا كان اسمه؟! أضفت في كياسة:-

- "لكني أتفهم - بالرغم من ذلك - علاقتك بالموسيقى، وعشقك العزف، كل إنسان منا له هواياته ورغباته الخاصة به، ما لا أتفهمه حقًا: هو استسلامك لمصير (شوبان) الذي تراه يحيط بك، هل هو تقمص؟"

تبدلت نظراتهم إلى الحيرة، ثم اتجهت نحو الأشيب الذي كان يرمقني بنظرة ثابتة جامدة، والتمعت عيناه بشكل غريب، لكنه قال بثبات:-

- "لست واثقًا من أني فهمت ما ترمي إليه يا سيد .....؟"

يفترض أن أخبره باسمي، ثم أوضح ما قصدته، لكني تعمدت أن أتجاهل ذلك، وقلت:-

- "بل أنا واثق من أنك أكثر الحاضرين فهمًا لكلامي.."

هنا تدخل د. (نجيب) قائلًا بجفاء:-

- "نحن هنا لنستمع إلى بعضنا البعض، ثم نناقش ما سمعناه، لا لنناقش

المسكوت عنه!"

ثم أضاف بلهجة ماكرة:-

- "لكن راقني جدًا حديثك عن الاستسلام للمصير، خاصة منك أنت بالذات!"

تبًا لك! أعتقد أن د. (نجيب) فاض به الكيل مني، وبدأ يتجرد من سمت الطبيب ويكتسب سمت الزوجة القديمة تجاه ضرتها، وها هو يغمز من تحت لتحت.

أنت من طلبت مني الحديث، وهذا ما أجيده!

لكن الأشيب – ماذا كان اسمه؟ - ما يزال يتحلى بالوقار والثبات، قال في هدوء:-

- "(مختار).. اسم جميل وعتيق، ما فهمته من كلامك يا سيد (مختار): أنك تشير إلى فشلي في الحب، وتربط بشكل ما بيني وبين (شوبان)، ....."

قاطعته قائلًا:-

- "أنت من فعلت بالمناسبة لا أنا.. أنت من ربطت بين حياتك وحياته، وفشلك وفشله، في الحب أقصد!"

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:-

- "معك حق.. لكنك لست محقًا في وصف ذلك بالاستسلام، أو تفسيره بالتقمص، لأننا – ببساطة – لسنا من يحدد مصائرنا، ولسنا من يتحكم في نجاح علاقاتنا بالآخرين، تعلمنا من أجدادنا أن كل شيء قسمة ونصيب، وأعتقد أنهم محقون في هذا، وإلا فأخبرني أنت: لماذا فشلتَ في الحب حتى الانهيار، ولماذا بلغتَ هذه السن دون أن تتزوج؟"

فشلت في الحب؟

- "هههههههه!"

ضحكت رغمًا عني، إنه يحاول أن يرد لي الضربة على طريقة الملاكمين، لكنه أخفق تمامًا، طاشت ضربته بعيدًا.. بل بعيدًا جدًا..

- "من قال لك إني فشلت في الحب؟ استنتاج خاطئ جدًا، أو ربما هو استنتاج تقليدي، كهل أعزب يعاني من مشاكل نفسية، ويرتاد عيادة طبيب، إذن هو خارج من تجربة عاطفية فاشلة، لم يستطع الصمود إزاء فشلها.. أليس كذلك؟"

هنا تدخل د. (نجيب) قائلًا بصرامة:-

- "لقد اتخذت الجلسة مسارًا سيئًا، لنتوقف ها هنا لو تكرمتما."

وأضاف في شيء من الرفق:-

- "نحن هنا ليساعد بعضنا بعضًا لا ليعمق بعضنا جراح بعض.."

أومأ الأشيب رأسه موافقًا، وقال:-

- "أعتذر عن هذا.. بالتأكيد لم أقصد الإساءة، كنت فقط أحاول إثبات فكرة: أننا جميعًا عاجزون عن التحكم في علاقاتنا، وفي أقدارنا.. والأمر لا علاقة له بـ (شوبان) بالمرة.."

حسنٌ حان دوري لأتحلى بالكياسة وأعالج الأمر:-

- "ما قصدته أنا: أن الحياة لا تتوقف على أحد، وفشل تجربة لا يعني النهاية، لنحاول مرة أخرى ونتفاد أخطاء الماضي، ونحسن الاختيار، كل شيء قسمة ونصيب.. نعم، كذا الأرزاق، هل يعني هذا أن نقبع في بيوتنا وننتظر الرزق؟"

هل هذا كافٍ؟

- "أنت موسيقي، لديك موهبة تستطيع أن تفرغ فيها انفعالاتك، وهو شيء أحسدك عليه، لأني لا أمتلك أية موهبة على الإطلاق، وإلا لما كنت هنا الآن.."

أضفت في مرح مصطنع:-

- "عن نفسي سأكون حريصًا على أن أراقص حبيبتي على عزفك، لكن أمهلني حتى أجدها أولًا.."

ضحك البعض، وابتسم البعض الآخر، أما العجوز فقد ظل يحدق فيّ بصمت وثبات، قبل أن يقول أخيرًا:-

- "أنت أيضًا موهوب. موهوب جدًا.. لكنك لا تدرك موهبتك بعد"

عم يتحدث؟

لأول مرة منذ بدأت أرتاد هذه الجلسات أشعر بالفضول لمعرفة شيء، لكن د. (نجيب) تدخل منهيًا الحوار:-

- "لنكتف بهذا القدر، موعدنا الثلاثاء القادم بإذن الله، وسيكون الدور عليك سيد (أسامة).."

وأشار إلى أحد الجالسين، الذي تفاجأ بذكر اسمه، بينما شعرت أنا بالارتياح لعدم ذكره اسمي أنا! وحين بدأ الجميع الانسلال خارجًا واحدًا تلو الآخر، فوجئت بأصابع قوية تمسك بذراعي، وإذا بذلك الأشيب يجذبني نحوه ليقرب فمه من أذني قائلًا:-

- "موهبتك: أنك تجيد التظاهر بأنك تفهم ما يدور، وأنك قادر على النفاذ إلى ما وراء الكلمات المنطوقة، وقراءة ما بين الأسطر، بينما أنت لا تفهم، ولا تعرف أي شيء على الإطلاق!"

ثم أفلت ذراعي وانطلق مهرولًا إلى الخارج.. هذا العجوز صعب المراس، ومستفز..

حسنٌ أعتقد أني أفهم الآن لماذا هو فاشل في الحب! وأعرف أيضًا أني نجحت في كسب عدو جديد!

الفصل الثاني عشر

(ناصر الباز) كاتب شهير، وله قراء بالآلاف إن لم يكونوا بالملايين، لكن هل يعرف أحد منهم أن (ناصر الباز) كان عرابًا متنبئًا.. أو متبصرًا.. أو أي وصف يؤدي ذات المعنى! أراهن أن أحدًا منهم لم ينتبه لهذا على الإطلاق، رغم تكرار الوقائع التي تؤكده!

كثيرون من قرءوا روايته الأولى: (الحطام والسيل)، التي كتبها في منتصف الثمانينات، وكانت تحكي عن ذلك المجند الشرطي البسيط الذي لاقى الإذلال على أيدي جميع من حوله، وآخرهم حبيبته التي لم يتمن غيرها، حتى انفجر أخيرًا في رؤسائه، وقرر الثورة عليهم، ودفع حياته ثمنًا لذلك! أليس عجيبًا أن تحدث في العام التالي – ١٩٨٦م – انتفاضة مجندي الشرطة، مطالبين بتحسين أحوالهم المعيشية، ليدفع بعضهم حياته ثمنًا لهذا المطلب العادل؟ ماذا يسمى هذا في رأيكم؟

كما أن الجميع يعرفون روايته الثانية التي صدرت في مطلع التسعينيات، (الرقص على الأمواج)، وكانت تحكي عن شاب ريفي رحل إلى القاهرة، التي لم تحسن استقباله، ومع ذلك استطاع أن يصمد، وأن يُخضِع عالم المدينة لصالحه، ويحقق الثراء بالطرق المشروعة وغير المشروعة، حتى فقد كل شيء تحت وطأة زلزال عنيف ضرب المدينة! يومها كتب أحد النقاد ساخرًا: إن (ناصر الباز) يكتب كما لو كان يعيش باليابان، ويتحدث عن الزلازل، ونتوقع منه ربما في المرة القادمة أن يكتب عن البراكين! بعد عامين اثنين فقط انهارت البناية التي يقطنها ذلك الناقد السمج، من جراء الزلزال العنيف الذي ضرب القاهرة حينها.. ماذا تسمون هذا أيضًا؟

أنصحكم بأن تعيدوا قراءة ما خلفه (ناصر الباز) من قصص قصيرة وطويلة، وسوف تفاجئون بكمّ الأحداث التي تنبأ بها، ووقعت كما أخبر، ولم يفطن لقدرته هذه أحد سواي..

ما زلت أستعيد ذلك الموقف، حين وقفت تلك الفتاة في تلك الندوة لتسأل (ناصر الباز) عن سر ارتكازه على الجوانب السلبية للأنثى، هي ذاتها الفتاة التي صارت زوجته بعد عام تقريبًا، لكنها لم تتحمل الحياة سوى بضع سنوات قليلة، لتتركه وترحل دون عودة، حاملة طفلته معها.

عن نفسي حاولت أن أمنع حدوث ذلك، وتحدثت إليها مرارًا، آخر مرة رأيتها فيها قبيل الانفصال بأيام قلائل، قالت لي:-

- "كان قرارًا متسرعًا من كلينا، المشكلة أن هذا النوع من القرارات التي لا نكتشف خطأه إلا متأخرًا، لكن لحسن الحظ ثمة فرصة لتدارك الخطأ"

وحين سألتها: لماذا تعتبره خطأ؟ لم أحصل على إجابة منها على الإطلاق! هي التي طلبت الطلاق، وهي التي أصرت عليه، لم أكن معهما داخل البيت، لكني أعرف أنه ناشدها ورجاها واستعطفها كثيرًا كي تبقى معه، ولم تفعل! ربما كان التفسير المنطقي لما حدث: أنها أعجبت بـ (ناصر الباز) كعقل فقط، وبعد الزواج اكتشفت أن الحياة الزوجية تحتاج إلى ما هو أكثر من عقل.. ولو أحسنّا الظن سنقول: إنها ضاقت بإهماله لها، وتفرغه للكتابة أغلب الأوقات، والمرأة تغار دائمًا مما يلفت انتباه زوجها، ولو كان حرفة أو هواية.. أو ربما كان (ناصر الباز) بارعًا حقًا ككاتب، لكنه ليس كذلك كزوج وإنسان! لهذا لم يشبعها عاطفيًا، ولا جنسيًا ربما كذلك.. المحصلة النهائية: أنها لم تجد نفسها في حياتها معه، فاختارت الانفصال، وهو أذعن لرغبتها رغم رفضه الأمر!

لكن هل هذا يبرر إصرارها على معاقبته بحرمانه من طفلته، والحيلولة دون أن

يراها لسنوات طويلة؟! وهل يبرر محو وجوده كأب من قلب ابنته الوحيدة وذهنها؟

الأمر لم يكن كما نعتقده إن أحسنَّا الظن أبدًا، لقد فكرت طويلًا فيما حدث، ولم أجد سوى تفسير واحد تنتظم فيه الأمور والوقائع، وتصبح النتائج متسقة تمامًا مع المقدمات.. إن (ثناء) لم تكن تبحث عن (ناصر الباز) الزوج المثقف، ذي المكانة المادية والأدبية المرموقة، بل كانت تبحث عن حياة ما، ذات تصور معين في مخيلتها، حياة تناسب امرأة جميلة متزوجة من كاتب قدير، لكنها لم تجدها معه مثلما كانت تتخيل أو تتمنى.

نعم كان (ناصر الباز) كاتبًا مبدعًا، لمع اسمه في الأوساط الأدبية والثقافية، وحقق نجاحًا مبكرًا في القصة، وحولت بعض كتاباته إلى أعمال درامية وسينمائية، وبالتأكيد تصورت تلك الزوجة الشابة أنه سيكون ثمة أموال طائلة، ومنتجو سينما ودراما يلهثون وراءه، وعلاقات مع فنانين وفنانات، وأجواء مبهرة، وأضواء متوهجة، وبالتأكيد ستكون هي – زوجة هذا الكاتب المبدع – بؤرة هذا الوسط أكثر منه هو، وسوف تقدم نفسها للمجتمع باعتبارها ملهمة الأديب الكبير، وتحظى بلقاءات أمام الشاشات وخلفها، وصداقات في أرقى الأوساط..

هكذا كانت تفكر وتتخيل، لكنها في النهاية لم تحظ بأي شيء من ذلك.. فجأة بعد سنوات من الزواج وجدت نفسها لا تزال منطوية في الظل، منزوية في الظلام، لأنها تزوجت من كاتب لديه موهبة في الكتابة والتحدث، لكنه ليس بارعًا على الإطلاق في تسويق وتلميع نفسه على الوجه الذي يليق بموهبته وقدراته، كاتب يفضل الانزواء في الظل، والاعتكاف بغرفة مغلقة منكبًا على أوراقه، على أن يتواجد أمام الأضواء، لأنه لم يكن يعنيه إلا أن يكتب.. يكتب

حتى لو لم يقرأ له أحد.. يكتب ولا يبحث عن أي مكاسب مادية أو أدبية أو اجتماعية، وحين حاولت هي تغيير مساره اصطدمت بجدار متين سميك من القناعات والمبادئ والطباع الخاصة التي يستحيل تعديلها أو ترميمها، وهكذا تبخرت أحلامها في غمضة عين، واكتشفت أنها تحيا في كابوس مقيت، مع شخص يكبرها بسنوات كثيرة، ولا تلتقي معه في أي شيء، لأنه لم يكن سوى قلم يكتب.. قلم فحسب.

وحتى كتاباته التي كانت تقرؤها بشغف أمست في نظرها أشبه بنقوش صينية سخيفة على جدار متهدم! وهكذا لم تجد بدًا سوى الانفصال واستنقاذ أحلامها في مكان آخر، مع رجل آخر، وصار مجرد اقتران اسمها بهذا الأديب اللامع نقمة لا نعمة.. خسارة لا مكسب. وكان هذا في نظرها أمرًا يستوجب العقاب له!

بالنسبة لـ (ناصر الباز) – المتبصر العراب – قلت لكم سابقًا: إني لا أعرف بالتحديد سبب توجسه من الأنثى دائمًا، ولا إصراره على تقديمها في دور المتخلية عن حبيبها في أغلب قصصه، إن لم يكن جميعها، وكانت تلك الفتاة التي صارت زوجته، ثم طليقته، أول من تنبه لهذا قبل الآخرين، وسألته عنه، ولم تحصل على إجابة.. لقد ولد (ناصر الباز) في الريف، حيث النساء المخلصات، اللاتي لا يعرفن سوى أزواجهن وأبنائهن، فما الذي رآه وعاينه وجعله يعتنق هذه العقيدة في الأنثى؟!

التفسير الوحيد في رأيي أنه عراب متبصر، عرف ما سيعانيه مع زوجته، وكتب عنه من قبل أن يلقاها! ربما تستخفون بهذا التفسير، أو تسخرون مني ومن تخميني، لكن كل ما أرجوه منكم أن تعيدوا قراءة ما كتبه هذا الرجل قبل زواجه، ثم احكموا بأنفسكم!

وإن لم يكن هذا الدافع كافيًا، أو مرضيًا لكم، فعلى الأقل اقرءوا لتعرفوا من وماذا كان (ناصر الباز)!

#اقتباس

"كان (هشام) يعلم بشكل يقيني أن الرجل – أي رجل – لا يتخلى عن مبادئه وقناعاته طواعية إلا من أجل امرأة.. كما كان يعلم بشكل يقيني أن هذه القاعدة تشمله، وأنه مهما حاول الصمود سينهار في النهاية أمامها، وفرص صموده منعدمة، لذا لم يكن ثمة مفر أمامه سوى الفرار منها..

لكن هل يستطيع الفرار منها حقًا؟!"

من قصة (مقايضة) – للكاتب (ناصر الباز)

***

ما يعرفه أكثر الناس عن (ناصر الباز) أنه شخص انطوائي، لا يعرف إلا أن يخلو بنفسه ليكتب، يفر وينفر من الناس، ليس له أصدقاء إلا عدد قليل جدًا، أقل حتى من أصابع اليد الواحد، وفي الغالب لا يراهم إلا في المناسبات، يرفض الزيارات سواء منه لغيره، أم من غيره إليه، لا يستقبل ضيوفًا، ولا يعود مريضًا، ولا يعزي في ميت، ولا يهنئ في زفاف أو خطبة..

بالتأكيد هم على حق، لكن ما لا يعرفه أحد من الناس سواي: أن ذلك الشخص الانطوائي يصر على الخروج إلى الشارع يوميًا لعدة ساعات، لا يفعل فيها شيئًا سوى التسكع في الشوارع، ولا يعدم الأمر أن تروه مصادفة يجالس عامل قمامة، أو خفيرًا يحرس موقعًا للبناء، أو بواب بناية بمنطقة نائية، أو يشارك عاطلًا بأحد المقاهي احتساء الشاي.

إنه يحب كثيرًا مجالسة من لا يعرفهم ولا يعرفونه، يحب أن يستمع إليهم، ويتعرف همومهم وقصص حيواتهم، الناس بالنسبة له مشاريع قصص متحركة، وهو يحب

الاقتراب منها، وله أسلوب فريد في كسب ثقتهم من جلسة واحدة، بل في دقائق معدودة، وأغلب هؤلاء الذين يجالسهم يتحولون إلى أبطال أو شخصيات ثانوية في قصصه.. الشارع بالنسبة له مادة خصبة للقصص والحكايا، وهو وإن كان يميل إلى الفانتازيا في كتاباته إلا أن واقع الحياة وتأثيره على البسطاء هو مصدر إلهامه الأول والأخير!

وبقدر حبه مجالسة البسطاء كان يبغض محاورة الصحافيين، ويرفض إجراء أية مقابلة خارج الندوات والصالونات التي يحضرها، أذكر أن صحافية شابة بذلت كل ما بوسعها لتحظى بلقاء صحفي معه، لكنه رفض بقوة إجراء تلك المقابلة، وقطع عليها كل طرق الوصول إليه، وقال مبررًا رفضه القاطع:-

- "أنا لا أحب الثرثرة أو التحدث عن نفسي، وهي لا تريد مني سوى هذا، لو كانت بائعة خضروات لجالستها بكل سرور، فقط لأستمع إليها، لا لأجعلها تستمع هي إليّ، هؤلاء البسطاء بحاجة ماسة لمن يستمع إليهم، أما هؤلاء الصحافيون فهم بحاجة لمن يثرثر إليهم، وأنا لا أصلح لذلك"

كنت متعاطفًا بشدة مع محاولات تلك الصحافية الشابة، وحاولت أن أربح نقطة أو زاوية أنفذ منها، فقلت:

- "اعتبرها امرأة بسيطة تبيع الخضروات بالشارع، اجلس معها وثرثر بعض الوقت، ما الذي ستخسره؟"

رد بهدوء وحسم:-

- "لو كانت بائعة خضروات لجلست أنا للاستماع إليها وهي تثرثر.."

أضاف بنية غلق المناقشة نهائيًا:-

- "إن قصصي ورواياتي موجودة بكل متجر كتب، وكل فرش لبائع بسيط، يمكنها أن تكتب عني من خلال قصصي ورواياتي، كما يمكنها أن تجري

مقابلات مع معارفي وتسمع منهم عني، سيكون هذا أفضل بكثير من أن تسمع مني أنا، أن يتحدث الآخرون عنا أفضل!"

بالطبع لم أكن راضيًا عن هذا، لكني عرفت أني لن أحصل على سوى هذا مهما حاولت أنا أو حاولت هي!

كان (ناصر الباز) متواضعًا للغاية، لكنه في هذه النقطة بالذات كان يتعامل بتعالٍ غريب، ويعتقد أنه أكبر وأشهر من أن يحتاج إلى تلميع من قبل الصحافة، بالرغم من إنه عمل بالصحافة لسنوات، وظل يكتب للصحف والمجلات قصصًا وروايات حتى وفاته، وأذكر أنه قال لي ذات يوم:-

- "أنا أكتب وأنشر منذ ما يقرب من ثلاثين سنة، ولا يوجد مثقف حقيقي في مصر لا يعرف اسمي، وجميع نسخ مؤلفاتي تباع في الأسواق، ويمكنك التحقق من دار النشر بنفسك، كل ما تريد تلك الصحافية — وغيرها - أن تفعله: أن تحاول توسعة دائرة قرائي لتشمل فئات لا تقرأ سوى مقاطع وأسطر قليلة من أي كتاب، وأنا في غنى عن تلك الفئات."

حين تعرض لتلك الحادثة التي قضت عليه، ونقل إلى المستشفى محطمًا، وظل عدة أيام غائبًا عن الوعي، وعدة أيام أخرى فاقدًا للنطق، قامت تلك الصحافية بجهد كبير في نشر الخبر في كل الأنحاء، وكسب تعاطف قطاع عريض من الجماهير، بما فيها الفئات التي لم تقرأ له، وكانت تزوره بالمستشفى يوميًا لتتابع حالته، وحين تمكن من النطق أخيرًا أتته تطلب مقابلة صحافية معه، وهي تتعشم أن يوافق هذه المرة في ظل تلك الظروف، لكنه صدمها بالرفض من جديد، ليس هذا فحسب، بل طالب إدارة المستشفى بعدم السماح لها بزيارته!

يومها أنا الذي شعرت بالغبن والإجحاف، لكنه قال لي بإعياء:-

- "أعرف أنك لن تتفهم.. لا أحد في العالم سيتفهم!"

لم أضغط عليه كثيرًا، لأنه كان بحالة مزرية من الناحية الصحية، وانتظرت على أمل أن تتحسن حالته، ويشرح لي موقفه، وللأسف كانت حالته تسوء يومًا بعد يومًا، وبدا لكلينا أن النهاية تلوح في الأفق، وقتها أدركت أن (ناصر الباز) يريد أن يغادر الدنيا دون إلقاء كلمة وداع!!

الفصل الثالث عشر

هل تعلم بم كنت أشعر في الماضي يا صديقي؟ كنت أشعر كأني غارق في عمق المحيط، والظلام حولي دامس، ورئتاي مطبقتان على ما تبقى من أنفاسي، لا تريدان التفريط فيهما، لكن أنفاسي تقاتل للخروج من ذاك السجن الضيق، وتعلم أنت أن خروجها لا يعني سوى انتهاء حياتي.

أتدري بم أشعر الآن؟ أشعر كأني أطفو فوق سطح حياتي، مغمضًا عينيّ، أستمتع بأشعة الشمس على بشرتي دون أن أنظر إليها، جسدي في حالة استرخاء تام، لا أريد شيئًا من الحياة سوى الاستمتاع بتلك اللحظة، لا أريد سوى أن أظل طافيًا فوق سطح الحياة، لا أفعل شيئًا، ولا أبغي شيئًا سوى الاستمتاع بتلك اللحظة لأطول مدى!

– "هذه هي المشكلة.. هل تعلم أن طفل التوحد يكون سعيدًا بعزلته عن العالم، وعدم قدرته على التواصل والكلام، بل إنه يقاتل على أن يظل هكذا على الدوام، ويقاوم أية فرصة لإخراجه من تلك الحالة؟"

– "تعني أني أصبت بالتوحد على كبري؟"

– "بل أعني أنك مستمتع بشيء لا تدري أنه يضر بك، ويدمر حياتك! لن أقول كمدمن المخدرات بالضبط، لأن مدمن المخدرات في صراع نفسي، هو يدرك أنه بحالة سيئة، ويدرك أنه يدمر حياته، لكنه أضعف من مقاومة الاستمتاع بما يتعاطاه! بينما طفل التوحد منسجم تمامًا مع حالته، لا يصارع" مخدرات! يا لها من فكرة! لماذا لم أصبح مدمنًا للمخدرات؟! بل لماذا لم أصبح تاجر مخدرات؟

بالتأكيد ليست مبادئي هي السبب، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولن تكون كذلك في المستقبل.. ثمة سبب آخر مجهول بالنسبة لي حال دون أكون كذلك، ربما لأني لا أملك المال الكافي لممارسة تلك التجارة، فهي – حسبما أسمع – تحتاج إلى رأس مال كبير، ولهذا تأتي بأرباح هائلة، وربما لأني لا أملك الجرأة ولا الشجاعة الكافيتين لممارستها، وربما لأني لا أملك الذكاء الكافي لتحقيق الربح الوفير، وتفادي السقوط المريع الذي يمكن أن يحدث في هذه المهنة الخطرة! وربما لأني لم أجد المعلم أو الملهم الذي يأخذ بيدي ويضعني على أول الطريق، ويساعدني على المضيّ فيه قدمًا..

كل من كان عايشتهم في حينا الحقير الفقير كانوا يتعاطون المخدرات، ولا يتجرون فيها إلا على نطاق ضيق جدًا، منهم الصبية الذين يروجون للبضاعة مقابل بضعة جنيهات، أما الرءوس الكبيرة فلم أر أحدًا منهم قط!

المسألة ليست مسألة ربح وثراء، بل مسألة إثارة ومغامرة، تلك النشوة التي تصاحب الخطر، حين يتصاعد الأدرينالين في الدم، ويمتزج الخوف بالقلق بالترقب بالرجاء بالأمل..

مشكلتي كانت دائمًا أني أتكلم ولا أفعل، أختبئ ولا أواجه، أسترق النظر إلى الحياة عامة من الثقوب الضيقة، مثلما كنت أفعل لأشاهد (سامية) بنت الحاج (توفيق) وهي تراقص الخيال!

– "أو ربما مشكلتك أنك كنت تعيش دائمًا في ظل والدتك، أو في ظل الأستاذ (جاد) الذي كنت تعتبره مثلك الأعلى، وحين مات كلاهما وجدت نفسك مضطرًا لممارسة الحياة وحدك"

– "الأم هي الأمان، خاصة لطفلها الذكر الوحيد، ومن الطبيعي أن أتأثر برحيلها، وكذلك الأستاذ (جاد) معلمي ومثلي الأعلى كما قلت، وهو الذي

تشكل وعيي بالحياة على يديه، لستَ بحاجة لدراسة الطب النفسي لتدرك هذا"

- "الأمان؟ هل هذا هو كل ما في الأمر؟"

- "ماذا تعني؟"

- "أخبرني أنت.. ألم تتأثر بشخصية أخرى خلاف الأم وذلك الجار المثقف؟"

- "نعم.. تأثرت بصديقي (ناصر الباز)، وقد رحل هو أيضًا!"

- "ليكن.. حدثني عن هذا، كيف أثر بك؟"

- "صدقني لا أعرف كيف أجيب عن هذا.. فقط أستطيع أن أقول: إنه كان عظيمًا!!"

- "إذن حدثني عن شعورك يوم مات!"

يوم مات؟ هل هو حقًا مات؟!

***

لم تكن غرفة عمليات، لكن كل شيء –كما قال (أمل دنقل) –كان أبيض! (أمل دنقل) عبقري، إنه الشاعر الوحيد الذي أحببت أن أقرأ له، أنا أمقت الشعر والشعراء، لكني وجدت نفسي في ديوان (أمل دنقل) الأخير، (أوراق الغرفة ٨)، لقد استطاع أن يكشف زيف نظرتنا للموت، لون الموت أبيض لا أسود، نحن نرى الموت في الأشياء البيضاء لا السوداء، الأكفان بيضاء، معاطف الأطباء والممرضات بيضاء، أقراص الدواء بيضاء، ملاءات الأسرة بالمستشفى بيضاء، أنوار المصابيح بغرف العمليات والعناية المركزة بيضاء، ما لم يقله (دنقل): إنه حتى مسحوق السم الذي يضاف للشراب لونه أبيض! نحن نرتدي السواد في العزاء لأنه اللون المناقض للموت الأبيض، إنه تميمة الحظ المنجية من الموت! لكن ما هو الموت بالضبط؟ هل هو مجرد سكون الجسد، وانسحاب

علامات الحياة منه، كانقطاع الأنفاس مثلًا؟ لا.. الأمر ليس بهذه البساطة أو السذاجة!

هل هو مجرد العبور إلى عالم آخر غيبي مجهول؟ لا أيضًا.. الموت أعمق وأعقد من هذا بكثير، أعرف هذا جيدًا، بالرغم من أني لا أعرف ماهية الموت بالتحديد، فالمشكلة أن من ذاق الموت فعليًا لا يعود ليخبرنا، وحين نكون نحن لا يكون الموت، وحين يكون الموت لا نكون، هذا كلام أحد الفلاسفة، لا أذكر اسمه لكنه صحيح جدًا..

هل تعلم يا صديقي أني أود لقاء الموت فقط لأعرف كيف هو؟ هل تعلم أني مستعد لفعل أي شيء كي ألقاه وأنا على قيد الحياة؟

لقد كنت بجانب أمي وهي تموت، وكنت بجانب الأستاذ (جاد) وهو يموت، وكنت حتى بجوار صديقي (ناصر الباز) وهو يموت، وددت لو أني أسألهم جميعًا بم يشعرون في تلك اللحظة؟ وماذا يرون وهم شاخصو الأعين؟ وددت أن أطلب منهم أن يصفوا لي الأمر كما يفعل المعلقون على مباريات كرة القدم، لكني كنت أعرف أنهم لن يفعلوا، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا، كان (ناصر الباز) تحديدًا بالكاد يتنفس، وظلت أنفاسه تخبو وتخبو حتى انقطعت، وددت أن أسأله: إلام كان ينظر وهو يعالج خروج الروح، ولماذا ظلت عيناه مصوبتين تجاه ذات الموضع حتى بعد أن فارقته الروح، وحتى أسبل الطبيب عينيه بيديه؟

الموت شيء غامض ومبهم للغاية.. إنه كالجحيم، الجميع يتحدث عنه دون أن يراه، والجميع يصفه من زاويته هو، ويختلف الوصف من شخص إلى آخر! كان (ناصر الباز) يقول:-

- "الجحيم: هو مفارقة أحبائك، أو رؤيتهم يتعذبون أمامك وأنت عاجز عن إنقاذهم او عن إنقاذ نفسك من التألم لهم!"

هكذا وصف (ناصر الباز) لي الجحيم، لكنه لم يصف لي الموت قط!

لقد حزنت كثيرًا يا صديقي لموته، أشد مما حزنت لموت أمي ومعلمي الأوحد، وأود أكثر من أي شخص آخر بالعالم – فقد عزيزًا له – أن يعود (ناصر الباز) إلى الحياة مرة أخرى، ليس لأني أشتاقه، وأنا بالفعل أشتاقه، بل لأطلب منه أن يصف لي الموت كما رآه!

– "هل هذا هو الأمر؟ انهيار بسبب وفاة صديقك المقرب؟"

– "لا ليس كذلك أبدًا.. أنت لا تعرف شيئًا عما أعانيه!"

–"هذا عجيب! لقد مات (ناصر الباز) قبل عام مضى أو أكثر، لماذا حدث الانهيار الآن؟"

– "قلت لك: إنك لا تعرف شيئًا.. لا تعرف شيئًا على الإطلاق!"

– "هل تعرف أنت؟"

– "ولا أنا.."

– "من يعرف إذن؟"

لن تصدق يا صديقي.. بل لن تصدق أيها الطبيب!

الوحيد الذي يعرف ما أعانيه الآن: هو (ناصر الباز) ذاته!!

***

الفصل الرابع عشر

سأقتل (أبرهة)!

نعم، لا بد من هذا.. إنه يستحق القتل على أية حال، بلطجي، لص، مغتصب نساء وأطفال، قاتل، كل الأشياء السيئة اجتمعت فيه، إنه وغد بكل ما تحمله كلمة وغد من معانٍ، وقتله سيكون في صالح البشرية، وسينقذ حياة الكثير من الأبرياء، إنه عمل أخلاقي بامتياز، حتى ضميري لن يؤنبني على فعله، بالعكس، سأشعر براحة كبيرة لأنني فعلت شيئًا نافعًا للبشر، من الآن سأبدأ التفكير في كل شخص ضعيف آذاه (أبرهة)، أو ينوي إيذاءه مستقبلًا، كل شخص فقير بالكاد يحصل على قوته وقوت أطفاله استلبه – أو سوف يستلبه مستقبلًا – ذلك (الأشرم)، كل امرأة شريفة اغتصبها، أو ينوي أن يغتصبها، أو حتى شوّه أو سيشوه سمعتها..

سأفكر مثل (ريتشارد قلب الأسد) في الحطابين في الغابات الباردة، والعجائز حول نيران المدفأة، وكل الأبرياء الذين سينجون من بطش ذلك الوغد! قتل (أبرهة)، وأمثال (أبرهة) عمل خيّر نبيل، هذا أمر لا يقبل النقاش، أمثاله لا يجلبون سوى الشر للناس!

النقاش سيكون حول: لماذا أنا بالذات من أصدر هذا الحكم، وأقوم بتنفيذه؟! إنه لم يؤذني على الإطلاق، إنه يعاملني بشكل جيد ومحترم منذ عرفته في الطفولة حتى اليوم!

لا.. هذا لا يعفيه من القتل، بالعكس، إنه يعطي للمهمة بعدًا أخلاقيًا أسمى وأنبل، لن أقتله بدافع شخصي، لن أقتله انتقامًا لنفسي، وإنما سأقتله دفاعًا عن الأبرياء، وحماية للبسطاء من شره المستطير، هذا يجعل مني شخصًا نزيهًا،

شخصًا يخدم الخير فقط دون أية دوافع شخصية، شخصًا يحارب الشر من منطلق أنه شر، لا وفق أي منطلقات أخرى، سيكون قتلًا نزيهًا نبيلًا من كل الوجوه!

لا.. أنا أخادع نفسي، هذه ليست الحقيقة، ما دمت أنوي فعل هذا الأمر فلأكن صادقًا مع نفسي من كل الوجوه، أنا لا أحترم الذين يرتكبون الأخطاء ويبحثون لها عن مبررات أخلاقية زائفة، ولن أكون منهم، أنا مقتنع أن قتل (أبرهة) عمل خيّر نبيل، لكن له دوافع شخصية بالفعل، وجود (أبرهة) يهدد حياتي أنا وحياة صديقي الصدوق (ناصر الباز)، هو وصمة العار في تاريخي وتاريخه، هو اللطخة السوداء في صفحتينا ناصعتي البياض، مجرد اقتران هذا الشخص بكلينا يسيء إلى شرفنا ونزاهتنا!

لا أدري ما الظروف أو العوامل التي دفعت (ناصر الباز) ليبحث عن أمثال (أبرهة) ويربط بينه وهذا الشخص، (ناصر الباز) رجل مثالي، صاحب مبادئ وقيم، يقدس القانون، ويدافع عن الضعفاء والمظلومين في قصصه ورواياته بنزاهة، كيف يصل به الحال ليكون صديقًا لمثل هذا الوغد المدعو (أبرهة)؟ لكني أفهم الظرواف والدوافع التي ربطت بيني أنا وبينه، قتل (أبرهة) سينقي راية الجميع!

***

شيء ما ليس على ما يرام ها هنا!!

لوهلة رأيت السعادة في عيني (ناصر الباز) وهو ينظر إلى (أبرهة) نظرة ترحيب في غاية الود، وهذا غريب جدًا، بل مفرط في الغرابة، ليس لأنه يرى (أبرهة) للمرة الأولى، دون سابق معرفة بينهما، بل لأنها المرة الأولى التي ألمح فيها تلك النظرة في عيني (ناصر الباز) تجاه أي شخص آخر في عالمنا على الإطلاق، والأغرب أن تكون المرة الأولى من نصيب (أبرهة الأشرم) بالذات دون بقية

البشر! انقبض قلبي بقوة، لكني لم أفعل شيئًا، واكتفيت بالمراقبة في حذر!

قال (ناصر الباز) بهدوئه وكياسته المعهودة:-

- "إن ظاهرة البلطجة منتشرة في ربوع الوطن العربي ككل، لا في مصر وحدها، البلطجة والبلطجية كلمة قديمة، من أيام (محمد علي باشا)، كانوا في الأساس فرقة من الجيش يتقدمون بقية الكتائب، يحملون البلطة التي تشبه الفأس، يقطعون بها الأشجار ليسهلوا عبور بقية الجيش، لكن كلمة بلطجية تغيرت بعد ذلك في الاستعمال"

فوجئت بـ (أبرهة) يضيف ببرود شديد:-

- "يطلقونها الآن على الرجال الأشرار الذين يؤذون الناس، ويأخذون أموالهم بالقوة"

ابتسم (ناصر الباز)، واستطرد متغافلًا عن تعقيب (أبرهة):-

- "في مصر نسميهم بلطجية، في الشام يسمونهم (الشبيحة) و(الزعران)، وفي السودان يسمونهم (الرباطة)، وفي المغرب يسمونهم (الشماكرية)، ولهم أسماء عديدة أخرى.. المهم أنهم ظاهرة موجودة وتحتاج إلى دراسة مستفيضة"

عاد (أبرهة) يضيف وهو يتكئ للخلف ليضع ساقًا فوق ساق بوقاحة:-

- "دراسة أم عقاب؟"

ابتسم (ناصر الباز)، وقال:-

- "لست مخولًا بمعاقبة أحد، أنا لست شرطيًا ولا قاضيًا، أنا مجرد كاتب، أحاول إلقاء الضوء على زوايا قد يغفل عنها الآخرون"

ظل (أبرهة) يحدق في (ناصر الباز) بتحدٍ وتحفز، قبل أن يقول:-

- "اسمع يا سيد (ناصر)، أعرف أنك كاتب كبير، لكن هذا لا يعطيك الحق لأن تتلاعب بي، وتخدعني بكلامك المعسول، إذا كنت تريدنا أن نواصل هذا

فلتقل الحقيقة في وجهي، وسوف أتقبلها، أنت تريد أن تعرف ما بداخل الشرير وهو يمارس الشر، وأنا هذا الشرير.. قلها ولا تخش شيئًا!"

رد (ناصر) بحزم رفيق:-

- "لست أخشاك ولا أخشى أي شيء آخر يا سيد (عثمان)، على الأقل في هذه المرحلة من حياتي، لكن ما الخير وما الشر؟ في طفولتنا علمونا أن الحياة تنحصر بين اللونين: الأبيض والأسود، لكنا عندما كبرنا اكتشفنا أن هذه الألوان ليست متمايزة كما علمونا، وكثيرًا ما يختلط الأبيض بالأسود، حتى أننا في كثير من المواقف لا نستطيع أن نميز بين الأبيض والأسود!"

وأضاف بنفس الحزم الرفيق:-

- "أنا لم أهتم في كتاباتي كلها بتمييز الخير من الشر، كل أبطال قصصي بشر يخطئون ويصيبون، لا يوجد خير خالص، ولا شر خالص، ولست معنيًا الآن بهذا التمييز"

صمت (أبرهة) مجددًا يفكر في النقلة التالية، عن نفسي طالما الأمر لا يزال ينحصر في صيغة حوار ونقاش لست أخشى على نفسي، ولا على صديقي (ناصر الباز) لأني أعرف جيدًا قدرات صديقي في الهيمنة على أي حوار، وأخذ محاوره إلى المنطقة التي يريدها، وها قد فعلها الآن مع (أبرهة)، أنا أخشى فقط أن يخرج الأمر عن صيغة الحوار والنقاش، ترى هل يحمل (أبرهة) مطواته الحادة معه الآن وهو يرتدي تلك الثياب الأنيقة؟ وهل يحتاج إلى مطواة ليفتك بكاتب تخطى الستين مثل (ناصر الباز)، وشخص آخر يدنو من الخمسين مثلي أنا؟

انتبهت الآن إلى أن (أبرهة) يماثلني في العمر، لكنه يبدو أقوى مني بدنيًا بكثير، ويمكنه أن يسحقني متى شاء، هذا بخلاف استعداده الفطري للفتك!

- "ما الذي أنت معنيّ به إذن؟"

أجاب (ناصر الباز):-

- "أريد أن أتعرف البعدين: النفسي والفكري للبلطجي وهو يمارس البلطجة، كيف يفكر وكيف يشعر وهو يؤذي الآخرين، وهل يستمتع بما يفعله؟ وهل يختلف البلطجي عن أي مجرم عادي كالقتلة واللصوص مثلًا؟ وقبل كل ذلك ما الذي أودى به إلى هذا الطريق من البداية"

قال (أبرهة) ببرود:-

- "ثم تكتب قصة عن ذلك البلطجي مستندًا إلى ما سمعته مني، وبما أني سأحكي لك ما أشعر به أنا، وما أوصلني أنا إلى هذا الطريق، إذن أنت بصدد كتابة قصة حياتي أنا!"

ضحك (ناصر الباز) وقال:-

- "من المؤكد أنك لم تقرأ لي حرفًا يا سيد (عثمان)، أنا في حياتي لم أكتب سيرًا ذاتية لأشخاص محددين، أنا أكتب عن الإنسان في جوهره المطلق، وصدقني لن يسير الأمر كما تعتقد، ويمكنني أن أؤكد لك هذا، كما يمكنني أيضًا أن أقدم لك ضمانة"

وأشار إليّ مضيفًا:-

- "صديقي هذا سيقرأ لك ما سوف أكتبه بعد أن أنتهي من كتابته، وأي حرف لن يعجبك سنقوم بحذفه، ولو شعرت بأي إسقاط عليك سنمزق الكتاب كله قبل أن يرى النور!"

يفترض أن يرضي هذا (أبرهة) ويجعله يبتسم، لكن تعبيرات وجهه الشرس بدت غير راضية، أعتقد أنه يشعر بهزيمته أمام (ناصر الباز) وهذا يحنقه، لكنه لا يجد سبيلًا للخلاص من هذا!

- "حسن.. ماذا تريد أن تعرف؟"

نظر إليّ (ناصر الباز) نظرة غريبة، ثم قال:-

- "يمكنك أنت أن تنصرف الآن يا صديقي.. أريد أن أحادث السيد (عثمان) دون تأثير من أحد، أحيانًا يتحدث المرء أمام الغرباء بطلاقة أكثر مما يتحدث أمام معارفه!"

تحيرت كثيرًا وأنا أستمع إلى هذا، حتى مشاعري كانت مضطربة، أشعر بارتياح لأني سأغادر دون المزيد من النظر إلى وجه (أبرهة) البغيض، وأشعر بقلق وخوف لما يمكن أن يحدث بعد رحيلي، لكني بالنهاية لم أملك إلا أن أغادر!

***

سأقتل (أبرهة)! لا سبيل سوى هذا!

لكن كيف أقتله؟ بالرصاص؟ لا أملك مسدسًا، ولا أعرف حتى كيف أستخدمه إن امتلكته، ولا أجيد التصويب، بما يعني أنني حتى لو تمكنت من الحصول على مسدس، وتعلمت كيف أستخدمه، وصوبت على (أبرهة) ست طلقات متتالية، فإن فرص إصابته في مقتل تظل ضعيفة بالرغم من ذلك، ولو نجا (أبرهة) من تلك المحاولة، لن أنجو أنا من انتقامه!

بالسكين؟ هذه من السهل الحصول عليها، لكن المشكلة أنها تحتاج لأن أقترب منه كثيرًا، ومثل (أبرهة) لا يستحب أبدًا الاقتراب منه بنية إيذائه، إنه بارع جدًا ومتمرس في الإيذاء، وبارع أيضًا في الدفاع عن نفسه، وأي اشتباك بدني معه سيكون لصالحه، بالرغم من أننا في سن واحدة، لكنه أكثر شراسة وقوة مني بكثير!

ربما يمكن أن يأتي هذا بالنتيجة المرجوة لو أني باغتُّه من الخلف، لكن حتى هذا يحتاج إلى مران، وإلى دراية واسعة باستعمال السلاح الأبيض، بحيث أتمكن من توجيه ضربة واحدة قاتلة له، في الموضع المناسب من جسده، وبالقوة المناسبة

للطعنة، وأنا لا أملك تلك الدراية بالمرة، ولا أدري كيف يمكنني تحصيلها!

يمكن استخدام حبل، حبل رفيع متين، واير (دبرياش) مثلًا، ومباغتته من الخلف، وخنقه حتى الموت، فكرة جيدة، لا.. بل سيئة! إنها تحتاج إلى قوة بدنية هائلة، لأنه حتمًا سيقاوم ويحاول التملص، كما أنها تحتاج –كفكرة الطعن بالسكين – لأن أكمن له بالمكان المناسب الذي لا يراني فيه أحد، وأنا لا أعرف هذا المكان المناسب.. الأمر معقد جدًا، أعقد بكثير مما اعتقدت من أول وهلة! ومع ذلك يجب أن يموت، لا يوجد حل آخر!

الوغد يطلب مساعدتي أنا للتفريق بين امرأة وزوجها لمجرد أنه كان يحبها في الماضي، هذا لو افترضنا أن مثله يعرف الحب، إنها قصة امتلاك لا أكثر، هو يرى شيئًا يظن أنه ملكه في يد شخص آخر، ويريد استرداد ملكيته على ذاك الشيء، الذي هو في حقيقة الأمر إنسان، بل زوجة وأم.

- "كل ما هو مطلوب منك: أن تكتب لي عدة خطابات بصيغة مؤثرة، أنا سأخبرك بمضمون كل خطاب، وأنت عليك التعبير بأسلوبك"

أشار إلى نفسه بتواضع لزج:-

- "أنا أعرف كيف أتحدث على طريقة المتعلمين، وأعرف كيف ألبس على طريقتهم، لكني لا أجيد أن أقرأ أو أكتب مثلهم، أنت تكتب وتقرأ منذ نعومة أظفارك، لذا سأكلفك بهذه المهمة من أجل صداقتنا القديمة!"

تقدم تجاهي خطوتين وهو يضيف:-

- "أريدها خطابات محنكة ومؤثرة، تشبه خطابات ذلك الصحافي الذي نسيت اسمه، الذي كتب خطاب التنحي لـ (عبد الناصر) وجعل الناس في المدن والقرى يبكون بدموعهم، وينسون الهزيمة المذلة، ويطالبونه بالبقاء، أريد لحبيبتي أن تبكي بالدمع الساخن وهي تقرأها.. هل فهمت؟"

الوغد يريدني أن أشارك في هذه المهزلة، وطبعًا لو رفضت لن يتقبل رفضي بسلاسة!

مهلًا! أنا أفكر بطريقة خاطئة، قتل (أبرهة) لا ينبغي أن يتم بهذه الروتينية، إنه يحتاج إلى ابتكار، موت (أبرهة) ليس هو المقصود الأعظم من تلك المهمة، أنا أريد استكشاف ماهية الموت، أريد أن أرى تجربة الموت تحدث أمامي، (أبرهة) مجرد فأر تجارب مناسب لهذه التجربة، أريده أن يموت أمام ناظريّ، وأنا ألاحظ موته، وربما استطعت الحصول منه على وصف للموت، لقد عاش (أبرهة) عمرهكله يرسل الناس إلى الموت، وآن الأوان ليختبر هو الموت بنفسه، ويعطينا وصفًا عفويًا له! وهذا لن يحدث إلا لو تمكنت من (أبرهة) بحيث أحكم قبضتي عليه كليًا، أريده أمامي طريحًا مكبلًا بالقيود، بحيث أتسلى بقتله، وأقف أنظر وألاحظ وأنا في مأمن، كيف يمكنني تدبير هذا؟

أنا الآن أفكر بشكل صحيح: في البدء أفقده وعيه، كيف هذا؟ لا أستطيع حقنه بعقار مخدر، لأني لا أعرف العقارات المخدرة، ولا أعرف حتى استعمال المحقن، ولا أستطيع سؤال صيدلي، لأنه سيشك في أمري قطعًا، أسلم حل: وضع المخدر أو المنوم في شرابه دون أن يشعر، هذا سهل، لن يشك أي صيدلي في أي شيء، أنا مجرد رجل مصاب بالأرق، لا أكثر.. سمعت عن أقراص منومة اسمها (ميلاتونين)، قيل لي: إنها أقراص تعوض الهرمون الذي يساعد على النوم بشكل طبيعي، أريد نوعًا أقوى من هذا، نوعًا قوي المفعول، كفيل بإسقاط خنزير قوي مثل (أبرهة) في نوم عميق، لا يفيق منه إلا بعد أن أنتهي من مهمتي، أي صيدلي سيعرف هذا النوع القوي.

لكن كيف أصل إلى (أبرهة) وأضع له تلك الأقراص في المشروب؟

صورة الأستاذ (جاد) أعلى الجدار، ينظر إلى العدسة باسمًا، لماذا يبستم الناس كلما نظروا إلى عدسة التصوير؟ هل يريدون إيهام أنفسهم بأنهم دومًا سعداء؟ هل يريدون الإبقاء على لحظات السعادة حية وخالدة من خلال الصور؟

ملامح الأستاذ (جاد) أشبه بطفل كبير، نظراته أشبه بنظرات طفل! في الركن العلوي الأيمن شريط حداد أسود يخبرني بأنه قد مات، أعرف أنه مات، وأتقبل هذا، لست ذلك الشخص الذي يعيش على أنقاض ذكرى سيئة حزينة، ويقضي بقية عمره في حداد، لا توجد لديّ أي مشكلة مع الموت، بالعكس، أنا أتقبل الموت تمامًا، أنا رأيت أمي وهي تموت، لكني لم أر أبي، فقد مات وأنا في المهد، علاقتي بالموت بدأت مبكرًا جدًا، وأومن بأن الناس يتحتم عليهم أن يموتوا مهما طالت حيواتهم، أنا لست رافضًا للموت، فقط أريد أن أعرف ماهيته، فقط أريد أن أختبره وأنا على قيد الحياة!

غريب هذا! حين نظرت إلى الصورة رأيت ملامح الأستاذ (جاد) متجهمة على غير العادة، هل أتوهم هذا؟

- "لا تفعل يا بنيّ.. أرجوك!"

أعرف يا معلمي أنك خائف عليّ مثلما كنت في حياتك، تخشى أن يؤذيني (أبرهة) أو يقتلني، لكن اطمئن يا معلمي، لقد رتب خطواتي جيدًا، وأعرف ماذا أفعل.

- "لا.. لا.. أنت لا تعرف ماذا تفعل، لا تعرف (أبرهة) جيدًا، إنه وغد قوي وشرس للغاية، إنه مقاتل منذ نعومة أظفاره!"

بلى أعرفه يا معلمي، أعرفه جيدًا، مجرد بلطجي يستغل ضعف الناس أسوأ استغلال، إنه يعيش على ضعف الناس وخوفهم منه، ويستثمر هذا الخوف لصالحه، لكن صدقني: حتى البلطجية يموتون مثلهم مثل بقية الناس!

- "(أبرهة) ليس مجرد بلطجي، إنه قاتل متمرس، يعرف أن له أعداء كثيرين، ويتوقع الخطر في أية لحظة، سيكون مستعدًا لك حتى دون أن يعرف بنيتك تجاهه!"

لن يعرف يا معلمي صدقني.. أنت الذي لا تعرف كيف رتبت الأمر، لقد ذهبت إلى الولد (عيد) وسألته عن (أبرهة)، أنت لا تعرف الولد (عيد)، لأنه ولد بعد وفاتك بسنوات، وهو الآن صبي متشرد، يروج المخدرات في الحي والأحياء المجاورة، سألته عن مكان (أبرهة) بحجة أنه طلب مني بعض الأوراق الرسمية لاستخراج بطاقة جديدة.. عليك أن تسألني: لماذا اخترت الصبي (عيد) بالذات لأسأله عن (أبرهة)؟ والجواب:

أولًا: لأنه يتعامل مع (أبرهة) أحيانًا حسبما سمعت من بعض أهل الحي، وبالتالي يمكنه أن يعرف مكانه.

وثانيًا: لأنه مجرد صبي سيئ السمعة، علاوة على أنه دائم التشهير برجال ونساء الحي، ولا أحد يأخذ بكلامه.

وثالثًا وهو الأهم: أنه يخاف الشرطة، ويعرف أن مصيره الأحداث لو وقع في أيديهم، وبالتالي لن يتقدم ليشهد بأي شيء عند عقد التحقيقات في مقتل (أبرهة).

ورابعًا وأخيرًا: أن حيلتي التي استعملتها ستنطلي عليه لأنه أمي ساذج! هل رأيت يا معلمي كم أنا دقيق في خطواتي وترتيباتي؟

(عيد) أخبرني بالأماكن التي يمكن أن أجده فيها، وأهم مكان: سرايا (جمعة السائس)، طبعًا أنت تعرف أن كلمة سرايا تقال على ذاك المكان على سبيل السخرية، إنها أقرب إلى حظيرة، في جزء منها يضع (جمعة) حصانه وعربة الحنطور التي يسترزق منها، ويستعمل الجزء الآخر كغرزة، يستضيف فيها

زبائنه.. قال لي الولد (عيد): مؤخرًا اقتصرت الغرزة على (أبرهة) فقط، لأن (جمعة) محبوس في تهمة ترويج مخدرات، و(أبرهة) هو الذي يرعى له حصانه، بما يعني يا معلمي أن القدر يهيئ لي الأمور لتنفيذ خطتي! الآن سأقبع من بعيد أنتظر حتى أرى (أبرهة)، وسأتسلل إلى هناك بحيث لا يراني أحد، وأسلم على ضحيتي بود، وأخبره بأني عثرت على صور بعض أحكام قضايا تخصه، وقد وجدت بعضها بالفعل في مكتبك، سأجلس لأثرثر معه قليلًا، سأنتظر ليغفل لحظة واحدة كي أفرغ مسحوق المنوم المطحون في المشروب الذي يتعاطاه أيًا كان، وأتأكد أنه تجرعه أمامي، ثم أستأذن وأغادر، لكني لن أبتعد، سأعود مرة أخرى إليه بعد أن يكون قد غط في النوم، وسأسحبه إلى داخل الحظيرة، وأوثقه بالقيود، نسيت أن أخبرك أني سآخذ حقيبتي الجلدية السوداء الصغيرة، وفيها متسع لدس حبل ملفوف بداخلها، حبل رفيع لكنه متين، وشريط لاصق عريض، وسكين حادة، وسأستعين بمطواته هو أيضًا في العمل، وسأنتظر حتى يفيق ليجد نفسه موثقًا بالقيود، وعلى فمه شريط لاصق، ولن أزيل هذا الشريط اللاصق إلا بعد أن أطعنه عدة طعنات بالمدية الحادة التي اقتنيتها خصيصًا من أجله، وسأطلب منه أن يصف لي الموت وأعده كاذبًا بأني سأحرره وأسعفه إذا منحني ذلك الوصف!

وحتى إن لم أحصل على وصف منه، ستكفيني متعة مشاهدته وهو يموت، ويخور كالثور الذبيح، أية متعة تضاهي هذه؟

- "لا تفعل يا بنيّ أرجوك. أنت لا تعرف (أبرهة) كما أعرفه أنا! ولا تقدر خطورته مثلما أقدرها"

أعرف أنك قلق عليّ يا معلمي، لكن اطمئن! أنا أعرف جيدًا ماذا أفعل!

لقد رتبت لكل شيء بطريقة مثالية!

الفصل الخامس عشر

الموسيقى هادئة، صوت رخيم – لا أدري إن كان ذكرًا أم أنثى – يغني بإيقاع بطيء، بلغة أجنبية لا أفهمها، أعتقد أنها الأسبانية، أو البرتغالية ربما.. الأغنية تبدو رومانسية دون أن أفهم كلماتها.. الإضاءة أيضًا هادئة، الطاولات متراصة بتنسيق جيد، على مسافات مناسبة، إنه مطعم فاخر في حياتي لم أدخل مثله، يفترض أن هذا المكان مريح للأعصاب، لكني متوتر للغاية! حتى الآن لم أضع يدي في طبق من الأطباق المصفوفة أمامي على الطاولة، بينما هي أوشكت على الانتهاء من فخذ الدجاجة.

– "لقد أعدوا لي قائمة من الأسئلة"

تناولت منديلًا من علبة فوق الطاولة، ومسحت بها فمها، ثم استطردت:–

– "أسئلة تتعلق بعدد الضحايا، وأسمائهم، وطريقة تخلصه منهم، والأماكن التي دفنهم فيها، وغير ذلك.. فقمت بإعادة صياغة تلك الأسئلة بطريقة صحفية، وأضفت عليها بعض الأسئلة من عندي تتعلق بشخصية السفاح ذاته، أردت أن أعطيه مساحة أكبر من الحديث عن نفسه لأشبع نرجسيته، لأنه في اعتقادي صمم على هذه المقابلة ليظهر نفسه كبطل.. أو هكذا ظننا جميعًا، أنا والشرطة!"

نظرت في عينيّ مباشرة وهي تضيف:–

– "لكن الأمر لم يكن كذلك، هو لم يكن يعنيه أن يظهر كبطل، بل كان يريد إيصال رسالة، رسالة إلى البسطاء، وإلى الحكام، بل إلى البشرية كلها!"

يفترض أن أسأل الآن: ما هذه الرسالة، المشكلة أني لا أرغب في معرفة أي شيء، وليس لديّ أدنى فضول أو اهتمام لأستمع إلى كل هذا، فضلًا عن

مناقشته والتحدث في تفاصيله، أنا حتى الآن لا أعرف كيف لبَّيتُ هذه الدعوة، وجئت إلى هنا..

– "إنه يريد أن يقول لنا جميعًا: الحياة ثمينة جدًا، فلا تهدروها، ولا تسمحوا لأحد أن يختطفها منكم، ومن يحاول عليكم بالتصدي له بيد من حديد!"

لحسن الحظ أنها تريد أن تثرثر فقط، وبالتالي لا تنتظر مني رد، أو سؤال، أو نقاش، هي مستريحة لهذا، وأنا مستريح لأنها لا تطالبني بشيء من هذا، كل ما عليّ الآن أن أتظاهر بالإنصات لما تقول! وأظنني بدأت أجيد هذا مؤخرًا..

– "هو ليس مثقفًا، وكلامه لم يكن مرتبًا بشكل تامّ، لكنه كان يعرف ما يريد قوله، وكان لحديثه عمق فلسفي غريب، ومؤثر للغاية."

الصحافية والسفاح! الروائي والبلطجي! كانت هذه لتكون قصصًا مثيرة وصالحة للسينما، لا تحتاج إلا إلى كاتب سيناريو مخيلته واسعة، ومخرج يمتلك أدواته، ليكتسح دور العرض، وجوائز المهرجانات.. إنها أفكار تليق بهوليود عن جدارة.

– "أنا حياتي خاوية تمامًا من الرجال، لم أعرف أبي لأنه مات وأنا صغيرة جدًا، عرفت زوج أمي الذي كان يعاملني بشكل مقبول، ليس جيدًا بما فيه الكفاية، لكنه لم يسئ معاملتي كذلك، ليس لي أشقاء ذكور، لي أعمام لكنهم لم يكونوا على اتصال بنا أبدًا، ولا أبناؤهم، لي أخوال وأبناء أخوال لكن لم يكن لهم دور مؤثر في حياتي، لم أرتبط بأحد في الجامعة، ولا بعد الجامعة، رفضت كل من تقدموا لخطبتي دون أن أفكر في طلبهم، وهكذا سارت حياتي بدون أي رجل، ولم أكن بحاجة يومًا في حاجة إلى رجل في أية مرحلة من حياتي، وكنت واثقة من قدرتي على الاستمرار كذلك.."

كانت قد فرغت من طعامها، وبالتالي تفرغت للنظر إليّ مباشرة، أنا أكره هذا، أكره أن يحدق أحدهم في وجهي طويلًا، حاولت أن أفر من نظراتها، شرعت

أجيل بصري في وجوه الجالسين على الطاولات من حولنا.

لفت انتباهي شاب يتحدث إلى فتاة بنعومة ورقة، وهي تبتسم لحديثه، وقد تورد وجهها، هل هذا هو الحب؟ أنا أتفهم الجنس بالرغم من أني لم أمارسه في حياتي، وعلاقتي به تقتصر على المشاهدة فحسب، لكني أتفهم تلك اللذة التي تنتج عنه ونحسها فيه، إلا أني لا أتفهم الحب، تلك الرابطة الوجدانية المخيفة التي تجعل شخصًا يموت في سبيل شخص آخر، أو يموت حزنًا عليه، أو يبني حياته وآماله عليه، ويشعر كما لو أن العالم توقف برحيله إذا رحل!

هل هذا حقيقي؟ هل فعلًا هذه الرابطة الوجدانية المخيفة موجودة؟ أنا لم أجربها قط، ولا أقتنع بوجودها، وأنزعج من إيمان أكثر الناس بوجودها! هل كانت (سامية) ابنة الحاج (توفيق الجزار) تحب ذلك الطيف الذي تراقصه؟ أعرف أنها خطبت قبل أن تنهي دراستها الجامعية بأشهر قليلة، ولم تكد تنتهي من دراستها حتى ارتج الحي بمراسم الزفاف الصاخبة، آخر مرة رأيتها وهي تجلس باسمة بجانب ذلك الغريب الذي يرتدي بدلة أنيقة، ورابطة عنق، ويبدو عليه الثراء، ثم ذهبت معه ولم تعد إلى الحي مطلقًا.. أو ربما تعود في زيارات خاطفة لأهلها لكني لا أراها، هل كان هو ذلك العريس الذي تراقص طيفه، أم أنها كانت تراقص طيفًا في خيالها فقط، أو طيفًا لشخص حقيقي لم تحظ به؟

كان (شوقي) – صديق الطفولة والصبا – يقول لي:-

- "النساء ليسوا مثلنا، نحن نحب الجنس لكنه ليس مرتبطًا عندنا بأية مشاعر، يمكن للرجل أن يضاجع أية امرأة يحصل عليها حتى دون أن يعرفها، لكن الأنثى تمزج دائمًا بين الحب والجنس"

أعتقد أني اقتنعت بهذا المنطق وقتها، لكني مع الوقت بدأت أتشكك، كنت أرى المطلقات وبعض المتزوجات يتهافتن على مكاتب المحامين لرفع دعاوى على

أزواجهن، اكتشفت أن المرأة تتزوج من لا تطيقه، ومن يجبرها أهلها على الزواج منه، وتنجب منه أطفالًا كذلك، ولا يكون عدم وجود الحب عائقًا عن ممارستهن الجنس مع أزواجهن.

وكلما تقدمت في حياتي اكتشفت أن عالم الحب والمشاعر عالم معقد ومتشابك للغاية، وصعب على عقلي فهمه واستيعابه، الجنس أكثر بساطة، ولذته حقيقة، أعرف هذا دون أن أمارسه.

- "(مختار).. واسمح لي أن أناديك (مختار) دون ألقاب.."

ليكن.. المهم ماذا بعد النداء، ماذا تريدين؟

قالت وهي ترمقني بنظرة غريبة:-

- "تلك النظرة في عينيك حين تكون شارد الذهن تشبه كثيرًا نظرة ذلك السفاح الذي أحببته!"

تبًا لهذا!

***

إنه (أبرهة) ذاته.. بعينيه الغائرتين المخيفتين، وملامحه المحددة القاسية، وبنيانه الضخم المفعم بالقوة.. القوة تبدو في كل شيء منه: جسده، نظراته، نبراته، إنه يبدو أشبه بنمر لا إنسان..

- "هل أنت واثق من أن صديقك هذا يريد مني ما يدعيه؟"

شعرت بالنفور الشديد منه أكثر من أية مرة لقيته فيها من قبل، لكني لم أستوعب حديثه في تلك اللحظة، وسألته مباشرة:-

- "لا أفهم عن أي شيء تتحدث؟"

أخرج من جيبه قنينة صغيرة تشبه قنينة دواء، وأزال غطاءها ورفعها ليسكب محتواها في حلقه بجشع، واحتقن وجهه البشع للحظات، قبل أن يستعيد طبيعته

ويقول وهو يعيد الغطاء إلى القنينة:-

-"يبدو أنك لا تفهم صديقك جيدًا بالرغم من طول عشرتك به"

ثم استدار للمغادرة، لكنه التفت برأسه فقط وهو يستطرد:-

-"انتبه لصديقك جيدًا لأنه ليس بخير!"

ثم ابتعد بخطوات سريعة، وأنا أنظر إليه بجهل وغباء!

***

- "دعني أنا أسألك ذات السؤال الذي وجهته إليّ في جلستنا عند د. (نجيب)"

أي سؤال؟ لا أفهم عمّ تتحدث!

- "هل فكرتَ في قتل أحد في يوم من الأيام؟"

آه.. هذا السؤال!

نعم.. فكرت في قتل (أبرهة)، وفي قتل آخرين غير (أبرهة).. فكرت في قتل ذلك الأشيب عازف البيانو الذي تنمر عليّ، لكن التفكير شيء، والتنفيذ شيء آخر!

- "لا.. القتل ليس حلًا لأي شيء في اعتقادي"

هزت كتفيها وقالت في غير اقتناع:-

- "تخيل نفسك تعرضت لاعتداء أو لتهديد من شخص ذي سطوة، أو اغتصب أحدهم بعضًا من حقوقك ولم تفلح في استردادها بالطرق الشرعية، أليس القتل حلًا في مثل هذه الأحوال؟"

لا أدري لماذا شعرت بالجوع في تلك اللحظات، وواتتني الرغبة لالتهام الطعام الذي أمامي، بالرغم من أنه فقد الكثير من حرارته، لم أتردد، أمسكت بالشوكة والسكين، وشرعت في تقطيع الطعام والتهامه، متجاهلًا نظراتها المتعجبة.

وقلت وأنا أمضغ الطعام في شدقي:-

- "حتى لو كان الأمر مثلما تفترضين، يظل القتل ليس حلًا في اعتقادي، أتدرين لماذا؟"

نظرت إليّ في تساؤل ولم تقل شيئًا، فأجبت عن نفسي وأنا أواصل مضغ الطعام:-

- "لأننا لن نحظى بالسلام الداخلي"

ضاقت عيناها وهي تنظر إليّ محاولة استيعاب المنطق، لكنها لم تفلح، فجهرت بالسؤال:-

- "عم تتحدث بالضبط؟ لا أفهم ما ترمي إليه"

توقفت عن مضغ الطعام برهة، لكي أقول بصوت واضح:-

- "أنتِ لا تستطيعين لدغ الثعبان الذي حاول أن يلدغك، أو أنه لدغك بالفعل، كذلك لن تستطيعي أن تعضي الكلب الذي حاول أن يعضك، أو عضك بالفعل، المغزى: الأوغاد دائمًا يحظون بمزية لا يمتلكها الأخيار: التصالح مع النفس، هم يلدغون ويعضون ويؤذون بضمير مستريح، بل يحتفلون بإيذائهم الآخرين، أنت صحافية حوادث وتعرفين هذا جيدًا، الشخص الطيب المسالم لو اضطر لقتل أحد الأوغاد دفاعًا عن نفسه، أو عن حق من حقوقه، لن يشعر بهذا التصالح والسلام مع النفس، وستظل الكوابيس تطارده لأمد بعيد، وسيفقد سلامه الداخلي!"

ظلت تنظر إليّ في صمت محاولة استيعاب هذا المنطق، أعتقد أنها اقتنعت بحديثي، لكنها تجد صعوبة في الإقرار بذلك، فعدت إلى تناول طعامي بشهية غريبة ومفاجئة، افتقدتها منذ زمن بعيد، لدرجة أني اندمجت في الطعام ونسيت بعد لحظات أنها تجلس أمامي، حتى أفقت على صوتها وهي تتساءل:-

- "أهذا ما يمنعك من اقتراف القتل؟"

أجبت وفمي ممتلئ بالطعام:-

- "هذا ما يمنعني من مجرد التفكير بالقتل"

أطرقت برأسها لأسفل وقالت:-

- "لكن السفاح الذي أحببته كان يشعر بالتصالح مع نفسه، وأنا واثقة من أنه شخص جيد، لكنه عانى كثيرًا من الأوغاد، ولم يجد حلًا آخر"

هززت كتفيّ قائلًا:-

- "لم يكن كذلك في المرات الأولى، لقد حظي بذلك السلام حين اعتاد قتل أولئك الأوغاد، ربما فاتك أن تسأليه عن شعوره بعد ارتكاب أول جريمة قتل له.."

رفعت عيونها تجاهي، وقالت بنبرة غريبة:-

- "لم يفتني.. لقد سألته عن هذا بالفعل، المدهش يا سيد (مختار) أن إجاباته توافق ما تحكيه أنت بالضبط!"

ما معنى كلامها هذا بالضبط؟ هل تُلمّح إلى شيء ما؟

أعتقد أني شبعت الآن، بقي بعض الطعام بالأطباق، لكني شبعت، أعتقد أن الإتيكيت يقتضي ترك بعض الطعام في الأطباق، وهذا ما سأفعله، لكن الأهم أن ننهي هذا الحوار الآن، إنه حوار سخيف ممل، لم أستفد منه إلا بتلك الوجبة، وسأضطر أنا لدفع ثمن الطعام بالرغم من أن الدعوة جاءت منها!

أشرت للنادل كي يأتي، فجاء مسرعًا، قلت له في عجلة:-

- "الحساب من فضلك"

أومأ برأسه وذهب إلى مكان ما، كي يأتي بالورقة التي تحتوي على قيمة الحساب، بينما هي تنظر إليّ خلال كل هذا بنظرة ثابتة، ثم قالت:-

- "لقد كنت محقة: أنت وهو متشابهان جدًا، متشابهان فيما هو أكثر من

النظرات"

ثم تناولت حقيبتها الصغيرة، واستطردت:-

- "أنا من سيحاسب على هذا، لأني أنا صاحبة الدعوة، وأكره من يعاملني كامرأة"

لم أجادلها، وحين قمت من مقعدي، واستدرت للانصراف، حانت مني التفاتة إلى ذاك الركن القصي، فرأيتهما هناك..

إنه هو.. ذلك الموسيقي الأشيب المتنمر، عرفته من ظهره، ومن حركت أصابعه في الهواء كأنه يعزف مقطوعة ما، وهو منهمك في الحديث مع تلك الفتاة النحيلة الشاحبة، التي تضع النظارة الطبية السميكة، وتنصت إليه باهتمام..

إنها هي.. فتاة الإنمي! ماذا كان اسمها؟!

***

الفصل السادس عشر

- "دعني أسألك يا (مختار): لماذا جئتني منذ البداية؟"

سؤال غريب! بل ساذج، يفترض أنه يعرف الجواب!

- "لأنك صديقي، أو هكذا أظن، وأملت أنك سوف تساعدني أفضل من الآخرين!"

- "لا أسألك لماذا جئتني أنا بالذات، بل أسألك: لماذا فكرت في استشارة طبيب نفسي؟"

حتى هذا سؤال ساذج، ما الذي يدفع الناس لاستشارة أطباء نفسيين؟

- "لأني كنت أشعر أني لست على ما يرام!"

صدقني: هو ذات السبب الذي يدفع الناس للجوء إلى المشعوذين، هل ثمة فرق بين الطبيب النفسي والمشعوذ؟ أحتاج لتجربة المشعوذين قبل أن أجيب!

- "ماذا تعني بأنك لست على ما يرام؟ صف لي ما تعانيه"

أووووف! لقد حكينا في هذا مرارًا من أول مرة أتيتك فيها!

- "لا بأس.. أعد ذلك عليّ الآن، لنفترض أني نسيت"

بل أنت تتخابث لسبب لا أفهمه، لكن سأجاريك في هذا.

- "كوابيس، أرق، فقدان شهية، هلوسة وتخيلات، حزن وبكاء مباغت دون أسباب، اكتئاب ....."

- "اكتئاب؟ أنت تشخص حالتك لا تصف أعراضها"

- "كل الناس يعرفون الاكتئاب، الاكتئاب لا يحتاج إلى طبيب نفسي لاكتشافه!"

- "لكني عرفت بالصدفة أنك قصدت طبيبًا نفسيًا قبلي!"

هذا محرج، ولا ألومه إن انزعج من هذا!

– "وقتها لم أكن أعرف عنوانك، عرفته فيما بعد!"

– "لست غاضبًا من ذهابك إلى طبيب آخر.. أنا فقط مندهش من إصرارك على اللجوء إلى أطباء نفسيين بالرغم من أنك تظهر عدم الثقة بهم دائمًا، ومندهش أكثر من أنك لم تبدأ بي أنا بالرغم من صداقتنا القديمة، بغض النظر عن ذاك التبرير الكاذب الذي سقته الآن!"

إلامَ يرمي بالضبط؟ إنه يتخابث بالفعل.. ثمة شيء ليس على ما يرام!

– "دعني أسألك سؤالًا آخر، وأرجو أن تصدقني هذه المرة: هل تخفي شيئًا عني لم تحكه قط في أية جلسة من جلساتنا؟"

يا إلهي! هذا مفزع! هل يعلم بأمر (أبرهة)؟

يا لي من مغفل! كان يفترض أن أتنبه لهذا! الأطباء النفسيون لديهم القدرة على الولوج إلى دواخل زبائنهم، ومعرفة أسرارهم الخفية، ولهم طرق عدة، إنهم يجيدون قراءة تعبيرات الوجه أكثر من الآخرين، علاوة على أنهم يستعملون أحيانًا التنويم المغناطيسي! هل قام بهذا معي وعرف أسراري من خلاله؟

– "ما الذي يجعلني أخفي عنك أشياء، وأنا الذي جئتك بقدمي؟"

مال بوجهه تجاهي، وهو يحدق مباشرةً في عينيّ ثم قال:–

– "هنا يكمن التعقيد: أنك تريد أن تعترف بشيء، وهذا هو سر إصرارك على اللجوء إلى الأطباء، تريد أن تزيح هذا الحمل عن كاهلك، وفي ذات الوقت: تستميت على إخفاء هذا الشيء!"

لا أفهم شيئًا مما يقول! أنا واثق من أنه يتخابث على أمل أن يحصل على شيء مني، بينما هو ليس لديه أي شيء، أنا واثق من هذا!

مال بوجهه ناحيتي، وسدد عينيه الضيقتين خلف زجاج النظارة في عينيّ،

واستطرد:-

- "في الحقيقة أنا أظنك تلعب لعبة مع الأطباء، تأتي إليهم وكأنك تقول لهم: أنا أخفي شيئًا أتحداكم أن تعرفوه، وتكتشفوه بأنفسكم، المدهش: أنك في قرارة نفسك تتمنى أن يكتشفوه، لأنك عاجز عن الإفصاح عنه بنفسك!"

إنه يتخابث.. يتخابث.. أنا واثق!

- "حسنٌ.. لنفترض أن الأمر كذلك، هل تتوقع مني أن أعترف بهذا الشيء الآن بعد سماع هذه الكلمات منك؟"

لأول مرة منذ سنوات طويلة أراه يبتسم، بل يضحك! خلع نظارته، ومسح زجاجها بعناية، ثم أعاد وضعها على عينيه، ونظر إليّ صامتًا لبرهة، قبل أن يقول:-

- "حسنٌ.. لنتجاوز هذا الأمر، دعنا نتحدث فيما تود التحدث فيه"

ماذا يقصد بالضبط؟ مال بوجهه ناحيتي مجددًا، وقال بنبرة جافة:-

- "حدثني عن صديقك (ناصر الباز)!"

***

كان (ناصر الباز) رجلًا مثاليًا.. لا أعني بالمثالي: الذي لا يخطئ أبدًا، بالعكس.. كلنا نخطئ، الأستاذ (جاد) أول من علمني هذا، قال لي:-

- "العالم ذاته بدأ بخطيئتين متتاليتين من مخلوقين مختلفين!"

ثم شرح لي الفارق:-

- "(إبليس) أخطأ، و(آدم) أيضًا أخطأ.. لكني (إبليس) اعتقد أنه الأفضل، قبل الخطأ وبعده، بينما (آدم) شعر بالنقص حين أخطأ، هكذا الطيبون يشعرون بالأسف والضآلة حين يخطئون، بينما الأوغاد يعتقدون أنهم الأفضل دائمًا، بل يعتقدون أن الخطأ هو الذي يجعلهم أفضل من الآخرين!"

منطق سهل وبسيط، استوعبته على صغري، وكنت أكره نفسي كثيرًا حينما أخطئ، حاولت كثيرًا ألا أخطئ، لكني فشلت، كنت أخطئ رغمًا عني، وكلما أخطأت كرهت نفسي أكثر، قال لي معلمي:-

- "لا تكره نفسك لأنك أخطأ، ما دمت تشعر بالخطأ وتتأثر به فهذا يعني أنك آدميّ، الأبالسة فقط من لا يتأثرون بخطاياهم"

المشكلة أن هذا جعلني أستمر في كراهية نفسي كلما أخطأت، لأني فهمت أن كراهيتي نفسي هي دليل آدميتي!

كان (ناصر الباز) ينحاز دائمًا للإنسان البسيط المقهور، ويركز بصره وقلمه على الفئات المنسحقة المهمشة التي لا يريد أن يلتفت إليها أحد، لطالما اعتقدت أنه محامٍ لا كاتب روائي وقصاص، محامٍ ينظر إلى الحياة باعتبارها قاعة محكمة شاسعة، أصحاب السلطة والنفوذ والأموال هم قضاتها ومحلفوها وممثلو الإدعاء فيها، بينما البشر البسطاء الكادحون المقهورون هم المحشورون خلف قضبان قفص العوذ والحرمان والعجز، ويعلقون آمالهم عليه هو محاميهم في أن يحررهم من هذا القفص، وجميع قصصه ورواياته ما هي إلا مرافعات للدفاع عن هؤلاء المقهورين.

أقول هذا بالرغم من أنه قال لي ذات مرة:-

-"أشعر أني محامٍ يتولى قضية خاسرة، وهو يعرف أنها خاسرة، لكنه يعزي نفسه دائمًا بقوله: لا يهم أن يكون حكم المحكمة لصالحك أم لا، المهم حكمك أنت على نفسك، يجب على الإنسان أن يدافع عن قيمه ومبادئه، وما يؤمن به، ولا يفكر في العواقب، تعرف أنت كيف وقف السحرة بعد أن آمنوا في وجه (فرعون)، ولم يثنهم تهديده ووعيده عن موقفهم، وقضوا نحبهم ثابتين على قناعاتهم، كذلك أصحاب الأخدود.. من الذي انتصر: السحرة وأصحاب

الأخدود أم الجبابرة الذي نكلوا بهم؟ الإجابة الصحيحة دائمًا: السحرة وأصحاب الأخدود انتصروا حين لم ينصرفوا عن الحق الذي آمنوا به!"

ألم أقل لك إن (ناصر الباز) كان مثاليًا؟ بل كان عظيمًا.. أو قل: كان أسطورة!!

لقد تعلمت منه أن أكره الزيف، أكره الباطل، أكره الجبروت، أكره القبح! تعلمت منه أن أبحث عن الإنسان في منابعه الأولى، قبل أن تحوله الحياة إلى آلة حاسبة، أو ترسًا في ماكينة لا تهدأ ولا تتوقف عن العمل مطلقًا! تعلمت منه أن أمتزج بالإنسانية كلها، وأن أعتبر آلام المعذبين في أقصى أنحاء العالم هي آلامي أنا! تمنيت أن أكون مثله!

بعد أن مات (ناصر الباز) استغرقت وقتًا طويلًا كي أقتنع بأنه مات! كان له حضور قوي جدًا، بل حضور كاسح، بحيث يصعب على كل من عرفه أن يستوعب فكرة أنه لم يعد موجودًا، وأنه لن يراه في الحياة مرة أخرى، كنت لفترة طويلة أشعر بأنه لا يزال موجودًا معي، أتوقع اتصالًا منه في أية لحظة، أو دعوة لحضور ندوة أو صالون، ما زلت أشعر كأني طفل فقد أباه، لكنه يشم رائحته في كل شبر بالمنزل، ويقول لنفسه: إنه مختبئ بمكان ما، يلاعبني، بعد قليل سيقفز أمامي ليقول لي بصخب: مفاجأة! فيعانقه وهو يضحك بمرح، لكن ذاك الأب لا يعود!

كنت بالمشفى يوم مات، بل كنت معه بالغرفة، ورأيته وهو يختنق، غادرت الغرفة مهرولًا أبحث عن طبيب، استغرق الأمر عدة دقائق بدت لي طويلة جدًا حتى وجدت الطبيب، وسحبته من ذراعه سحبًا نحو الغرفة، وحين وصلنا إلى هناك وجدناه شاخصًا إلى سقف الغرفة بلا روح.. لم أصدق حين قال لي الطبيب: لقد مات!

لم أتخذ أي رد فعل! كنت أنظر إليه مبهوتًا أحاول أن أستوعب الأمر: مات؟ ماذا يعني الموت؟ وكيف يحدث؟

صممت على أن أكون معه وهم يغسلونه، ويكفنونه، وفي الطريق كانت عيناي ثابتتين على النعش لا تفارقه، وحين أودعناه القبر وددت لو أني بقيت معه بالداخل حتى أتأكد بنفسي من أنه مات، لكن بعض أقارب المرحوم الذين قدموا من الأرياف أعادوني عنوة إلى المنزل، وكنت طوال الطريق أصرخ فيهم:-

- "أريد (ناصر الباز).. إنه حي لم يمت.. أريد أن ألقاه الآن!"

لم أشرع في البكاء إلا بعد أن أبعدوني عنه، وأعادوني إلى البيت عنوة.. لم أكن أبكيه، لأني لم أكن أصدق من الأساس أنه مات، بل كنت أبكي لأنه لم يعد بجانبي، أبكي لعجزي عن البقاء بجواره، أبكي لأنهم مصرون على أني لن أراه مرة ثانية!

أنا لا أذكر موت أبي الذي أنجبني، لأني كنت رضيعًا بالمهد، لكني تذوقت اليتم حين نشأت على الفقر والحرمان، ثم تذوقته مجددًا يوم مات صديقي (ناصر الباز)!

***

قال (أبرهة) والدخان الأزرق يتكاثف من حولنا:-

- "صديقك لم يكن يريد أن يكتب عني أو عن البلطجة، بل كان يريدني أنا أن أكتب نهايته بيدي!"

لم أرد.. كنت أحاول جاهدًا أن أتجنب هذا الدخان الأزرق أن يدخل رئتي، ويفسد خطتي كلها.. استطرد وعيناه الزائغتان تحاولان استجماع البصر:-

- "كان يبحث عن قاتل ينجز له ما عجز هو عن فعله بنفسه، أنا لست قارئًا لكني قرأته وفهمته من أول جلسة، هو لم يقرأني جيدًا، كان يظن أني قاتل أجير،

يمكن شراء خدماته ببعض المال، لكنه مخطئ.. أنت أيضًا مخطئ .."

أضاف وعيناه غائمتان تمامًا:-

-"أنا لا أقتل إلا من يؤذيني!"

***

- "كيف مات (ناصر الباز)؟"

ما هذه الأسئلة الغريبة الساذجة؟! ماذا أصاب صديقي د. (نجيب) بالضبط؟ مصر كلها تعرف كيف مات (ناصر الباز)، كل وسائل الإعلام نعته، وأقامت بكائيات ومرثيات لموته!

- "حادثة سيارة.. لم يكن السائق مخطئًا، هو الذي عبر الطريق شاردًا، كانت الصدمة قوية للغاية، لم تقتله لكنها تركته مهشم العظام، ليظل بالمشفى بضعة أيام يتألم، قبل أن يغادر الحياة!"

- "هل تعتقد أن هذا ما حدث فعلًا؟ "

- "ماذا يمكن أن يكون سوى ذلك، جميع الشهود الذين حضروا الواقعة أكدوا هذا، هو نفسه حين أفاق وتمكن من الكلام بصعوبة شهد بأن الخطأ كان منه، وبرأ ساحة السائق واعتذر له!"

- "وهل تبرئ أنت السائق من هذا؟"

هذا أول سؤال يبدو لي وجيهًا، يفترض أنه سؤال سهل، يفترض أن أقول: نعم، فالضحية نفسه يعتقد ببراءته، وهو خير من يحكم بهذا، لكني مع ذلك مؤمن بأنه هو الشخص الذي حرمني أغلى إنسان بالوجود، وكنت أتمنى أن يعاقب من أجل هذا، حتى لو لم يكن هو المخطئ في الواقعة!

- "هل فكرت في الانتقام منه؟"

- "لا.. إنني حتى لم أفكر في أمره، كنت موجوعًا بشدة لفقد صديقي المقرب،

وهذا كل ما كان يشغل تفكيري وقتها!"

- "والآن؟ ألا تفكر في الانتقام منه؟"

- "بالتأكيد لا.. إن حياتنا قدر، وموتنا قدر، والقدر له أسباب خارجة عن إرادتنا، كان مرور ذلك السائق في تلك اللحظة قدرًا"

- "هل ما زلت تتألم لرحيل صديقك ولا تصدق أنه مات؟"

- "أتألم نعم.. لكن لا أصدق: لا.. لقد استسلمت لهذه الحقيقة منذ زمن!"

- "حسنٌ.. لنكتف بهذا اليوم"

تبًا لك! وما الذي استفدته أنا من ذلك، سوى أنك أخرجتَ تلك الفئران البغيضة من جحورها؟

أعتقد أنه آن الأوان لأترك د. (نجيب)، وأبحث عن طبيب آخر يجيد عمله، سأغادر الآن هذه العيادة، ولن أعود إليها مجددًا مدى الحياة، هذا بجانب أني بدأت أشعر بتحسن الآن.

- "سؤال أخير قبل أن تغادر: هل تحمّل نفسك أدنى مسئولية عن موت صديقك؟"

- "!!....."

***

الفصل السابع عشر

- "مرحبًا.. أنا (أسامة شاهين).. شاعر غنائي!"

لم أسمع به قط، هذا لا يعني أنه كاذب، لقد أصبح مؤلفو الأغاني كثيرين جدًا، لأن المطربين أنفسهم كثر عددهم لدرجة لا تحتمل، وأنا كففت عن سماع الموسيقى منذ زمن بعيد، وأكثر هؤلاء الشعراء أدعياء لا شعراء.

- "لست هنا لأحدثكم عن الأغاني التي ألفتها، ولا عن المطربين والمطربات الذين غنوا كلماتي، لا.. أنا هنا لأحدثكم عن قصيدة كتبتها ولم يغنها أحد قط سواي"

إنه شاب، يقارب الأربعين لكنه لم يبلغها بعد، هيئته توحي بهذا، إنه ضئيل الجسم، قصير القامة، نحيل، أسمر الوجه، تقاطيع وجهه حادة، بعض الشعيرات البيضاء بدأت تظهر وتتناثر في شعر رأسه الأسود، ولحيته النابتة، يرتدي ثيابًا فاخرة لكنه لا يبدو مهندمًا بالرغم من ذلك، أعتقد أنه ريفي، ستتضح لهجته حين يستغرق في الحديث أكثر!

حقيقة لا أعرف كيف يصاب الموسيقيون والأدباء بالاكتئاب! يفترض أن لديهم موهبة تساعدهم على تفريغ انفعالاتهم أولًا بأول.. لو كنت عازف بيانو مثل ذلك الأشيب لقضيت أتعس أوقاتي في العزف، ولو كنت شاعرًا مثل هذا الذي يتحدث الآن لقضيت أتعس أوقاتي في الكتابة، وفي كل الأحوال كنت سأصنع لنفسي عالماً رائعًا من الخيال والإبداع يحميني من ضغوط الواقع وآلامه..

لكن على كل حال للمرة الأولى أكتشف الفائدة من تلك الجلسات التي أصر دكتور (نجيب) على عقدها، وللمرة الأولى أرى تلك البهجة في وجوههم، كانوا جميعًا يبتسمون في سعادة وتفاؤل، ولأول مرة وأعتقد أن هذا ما كان يصبو إليه

منذ البداية، أن نشد من أزر بعضنا البعض، ونتبادل الثقة والقوة والرغبة في الاستمرار، المشكلة أن هذا التأثير شمل الجميع إلا أنا!

ومرة أخرى فوجئت بتلك الأصابع القوية تجذبني من ذراعي، إنه ذلك الأشيب مرة أخرى، ماذا يريد هذه المرة؟ هل يريد أن يعاركني عراكًا بالأيدي؟!

- "أعتذر عما بدر مني الأسبوع الماضي، أنا لم أستعد بعد السيطرة على أعصابي بشكل كامل، وما زلت أعاني توابع الانهيار العصبي، لكني أشعر بتحسن كبير هذا الأسبوع!"

يفترض أن أقابل هذا الودّ بودٍّ مماثل، وأن أقابل تلك الابتسامة الودود بابتسامة مماثلة، لكني لم أفعل، ليس لأني لا أقبل اعتذاره، وإنما لأني نسيت مذاق الود والابتسام منذ زمن بعيد، وأصبحت أشعر بأنها أشياء غريبة عني!

- "هل تسمح لي بتوصيلك بسيارتي؟"

لا مانع عندي، إنها الوسيلة الوحيدة لأخبره بأني قبلت اعتذاره، بدلًا من اغتصاب ابتسامة زائفة على الشفتين! تذكرت الآن أني رأيته هناك مع فتاة الإنمي في ذاك المطعم الفاخر، وتذكرت أيضًا أنهما كانا يتبادلان النظرات أثناء الجلسة، لكني لم أكن منتبهًا لهما على النحو المطلوب، غريب هذا! إنه عجوز يقترب من الستين، وهي شابة في العشرين، علاقة مثل هذه لا تصح، وغير معقولة، لكن ما شأني أنا؟ لن أحادثه في هذا الأمر بكل تأكيد، ولا حتى بالتلميح!

لكني حين استويت معه بسيارته، لم أستطع تجاهل الأمر، أو كتمانه!

- "لقد رأيتكما هناك.. بالمطعم! أنت وفتاة الإنمي.."

نظر إليّ بطرف عينيه، وابتسم في هدوء، وقال:-

- "حقًا؟"

ثم عاد يركز في الطريق أمامه وهو يمسك جيدًا بعجلة القيادة، وقال:-

- "هل لديك مشكلة في هذا؟ هل أنت معجب بها؟"

هل هذا ما لاح على تفكيرك؟ أن أكون معجبًا بها، وأتحدث بدافع الغيرة؟

- "بالطبع لا.. انس أني قلت شيئًا في هذا الأمر!"

لكنه ضحك بهدوء، ثم سألني بمرح:-

- "أتعلم؟ أنا أنتظر دورك في الحكي بكل شغف، لديّ فضول شديد لمعرفة ما سوف تحكيه"

قلت وأنا أتأمل الشوارع والسيارات الأخرى المحاذية لنا:-

- "أنا نفسي لا أعرف ما الذي سوف أحكيه، وليس لديّ فضول لمعرفته، وكلما فكرت في الأمر ارتعدت هلعًا! "

سادت برهة من الصمت، قبل أن يقول:-

- "دعني أساعدك: احك لنا عن قصة حبك الفاشلة التي أودت بك إلى الانهيار العصبي!"

أود أن أفتح زجاج السيارة وأبصق، أشعر أن ريقي به شيء من المرارة، هل يوجد مياه بالسيارة، أريد أن أتناول أي شيء يغير طعم ريقي.

- "أولًا: أنا لست مصابًا بانهيار عصبي، ثانيًا: أنا لم أجرب الحب في حياتي، ومشاكلي النفسية لا علاقة لها بالحب بالمرة، أنا أسمع عن الحب فقط، وأقرأ عنه، لكني لم أختبره."

انخرط في الضحك دون معنى، ثم ختم ضحكته بالسعال، وفتح الزجاج بمقدار يسمح له بأن يبصق بالخارج، وقد طمأنني هذا، لأني أريد أن أبصق أنا الآخر، وكنت متحرجًا منه هو!

قال بجدية مفاجئة:-

– "بالنسبة لـ (ياسمين) بالتأكيد لسنا حبيبين، وأنا نفسي لن أسمح بحدوث مثل هذا، إنها تستحق أفضل مني، كل ما في الأمر أني أشعر بها، هي تفتقد الأب الصديق، الأب الذي يستمع إليها ويفهمها، الأب الذي ينتزعها من عالم الإنمي ويعيدها إلى الواقع، أما أنا فبحاجة إلى ابنة، ابنة صديقة، أحكي لها كل ما يؤرقني بأمان وأريحية، لقد فشلت علاقاتي الغرامية بالإناث فشلًا ذريعًا، أردت أن أجرب علاقة جديدة من نوع آخر.. يمكنك القول إني تبنيتها، وكلانا سعيد بذلك"

فتحت الزجاج وبصقت بالفعل..

هذا هراء، أعرف جيدًا ما سوف يؤول إليه، في البدء ستكون ابنة، ثم تتحول تدريجيًا إلى صديقة، وبالنهاية تنتهي إلى حبيبة أو عشيقة، إن العلاقات دائمًا بين الرجل والمرأة تنتهي إل الجنس، لا أدر لمَ! لكن على أية حال هذا لا شيء يعنيني من هذا كله، افعل ما شئت أيها العجوز، واذهب أنت وهي إلى الجحيم إن أردتما ذلك.

عاد ينظر إليّ بطرف عينه نظرة غامضة وهو يقول:–

– "بالمناسبة أنا أيضًا لاحظت نظرات تلك الصحافية البدينة تجاهك أثناء جلستنا، لكنك كنت غافلًا تمامًا عنها، وهذا يعطيني انطباعًا عنك: أنك في عالم منعزل تمامًا عن النساء، وهذا غريب على رجل مثلك، أنت لم تطرق باب الشيخوخة بعد، وفي مثل سنك هذه يزداد الرجال ميلًا إلى النساء."

ماذا ينتظر مني أن أجيب على هذا؟ بالطبع لا شيء! هو أيضًا لا يعنيه شيء من هذا، وكان عليه أن يدرك ذلك.

لكنه نظر إليّ بكامل وجهه هذه المرة، وسألني مغريًا:–

– "ما رأيك أن تذهب معي إلى البيت، نتناول بعض الطعام الجاهز ديليفري،

ونتناول بعض القهوة الساخنة، أو البيرة الباردة، ولو أردت أن تبيت عندي لا بأس، أنا أعيش بمفردي على أية حال!"

***

الدخان الأزرق الكثيف، عينا (أبرهة) الزائغتين، ولسانه الملتوي من أثر ذلك الشيء الذي يتعاطاه مع الدخان:-

- "هؤلاء الكتاب دائمًا ما يكونون تعساء جدًا، أتدري لماذا؟..."

وينخرط في السعال!

لم أجب، ولن أجيب، فلم آت إلى هنا لأسامر ذلك الوغد!

- "لأنهم يعرفون فقط كيف يكتبون عن الحياة، لكنهم لا يعيشونها!"

هل تلك الأشياء التي يتعاطاها هي التي تدفعه لأن يتفلسف، أما أنها صارت طبيعة له؟ إنه يستمتع بهذا فعلًا أكثر مما يستمتع بالخمر والمخدرات، أو أيًّا ما كان هذا الذي يتعاطاه الآن!

- "أراهن أن صديقك هذا لم يغادر حجرة مكتبه قط، أمضى حياته كلها منكفئًا على أوراقه، ممسكًا بالقلم يكتب، ولم يتذوق طعم الحياة إلى الآن!"

لا بأس، قل ما شئت أيها الوغد، لأن هذا آخر ما ستقوله في حياتك، الحظيرة ليس بها سوى حصان عجوز، والحقيبة الجلدية في يدي، وفيها الحبل الرفيع المتين، والمدية الحادة، وبجيبي مسحوق قراصين من الـ (أميتربتيلين) أعطاه لي الصيدلي وأكد أن قرصًا واحدًا كفيلًا بإسقاط فيل في غيبوبة، وأمامنا زجاجة البيرة مفتوحة، وأنتظر فقط أن تغفل عشر ثوان لا أكثر لأفرغ المسحوق في الزجاجة، وأنتظرك حتى تنام كالجثة، ولن يطول انتظاري أنا واثق!

- "هو أيضًا أدرك الآن أن حياته لا تساوي شيئًا، ويريد أن ينهيها، لكنه أجبن من أن يفعلها بنفسه.."

ثم انخرط في الضحك هذه المرة، وكالعادة انقلب ضحكه إلى سعال.. هذه المرة كان السعال أشد، لدرجة أنه استدار إلى الناحية الأخرى وكأنه يريد أن يقيء، الفرصة سانحة الآن، أخرجت الورقة المطوية التي تحتوي على مسحوق الـ (أميتربتيلين)، وأفرغته في فوهة زجاجة البيرة بسرعة، وهو لا يزال ينظر إلى الجهة الأخرى.. وقعت أيها الوغد في شر أعمالك، ولم يبق أمامك الكثير!

قال وهو لا يزال يتابع الضحك، ووجهه محتقن بشدة:-

- "هل تصدق هذا؟ عجز عن أن يعيش، وهو الآن عاجز عن أن يموت!"

انقلب ضحكه إلى سعال مجددًا، ثم لهث وهو يستطرد بفخر:-

- "أما أنا فقد عشت.. عشت وجربت كل شيء: السجن والحرية، الهزيمة والانتصار، الألم والمتعة، الغنى والحرمان، جربت كل شيء، لأني عشت الحياة التي لم يعشها هو وأمثاله!"

أمسك بزجاجة البيرة ورفعها إلى فمه أمام عيني المتلهفتين، وأفرغ كمية كبيرة من البيرة في حلقة، واحتقن وجهه أكثر، وجحظت عيناه، ثم تجشأ ومسح فمه بيده الأخرى، وقال لي بصوت متقطع:-

- "أخبرني: متى كانت آخر ليلة حمراء لك أو لصديقك الكاتب؟ أراهن أنكما لم تعيشا ليلة حمراء في حياتيكما! عن نفسي لا أستطيع أن أصبر يومين اثنين دون أن أضاجع امرأة، من منا الذي عاش الحياة، أنا أم أنتما؟"

وهل الحياة سجن ومتعة وليالٍ حمراء أيها الوغد؟ حتى لو كانت كذلك، أنت الذي ستفارقها بعد دقائق لا أنا ولا صديقي.. شعرت برأسه يثقل ويترنح، حتى صوته كان يثقل ويترنح وهو يضيف:-

- "لمَ لمْ تصبح كاتبًا مثله؟ أو بلطجيًا مثلي أنا؟ ماذا أصبحتَ أصلًا؟!"

ثم تهاوى على جنبه ناعسًا قبل أن يتلقى الجواب!

الحظيرة خاوية ليس بها سوى حصان عجوز، والحقيبة الجلدية في يدي، وفيها الحبل الرفيع المتين، والمدية الحادة..

حانت لحظة الانتقام! حانت نهاية (أبرهة الأشرم) المجرم الأثيم!

حانت لحظة الخلاص لي ولصديقي!

فتحت زجاج السيارة لأبصق مرة أخرى، لا تزال المرارة في فمي.. إنها دعوة كريمة جدًا، لكنها مقلقة، طعام جاهز، وبيرة، وبيات حتى الصباح، هل يمكنني أن أفسر هذا برغبته في أن نكون أصدقاء؟ ما الاحتمالات الأخرى؟ أعتقد أن الأمر سيسير مع فتاة الإنمي بذات الكيفية، تعالي إلى داري كي أعلمك العزف على البيانو، تعالي لتسمعي أجمل مقطوعات (شوبان) التي كتبها لحبيبته التي لم يحصل عليها، غداء جاهز، ثم ضغط منه وإلحاح لتشاركه البيرة، ثم .....!

هذا الأشيب لا يختلف كثيرًا عن (أبرهة) البلطجي، بل هو أخبث وأكثر شرًا.. السبب الوحيد الذي يمكن أن يدفعني لقبول دعوته: أن أقتله، هل أحقق نبوءة تلك الصحافية البدينة، وأتحول إلى سفاح يقتل المجرمين الآثمين؟

– "أشكرك على هذه الدعوة، لكني مرتبط بموعد مع صديق، إنه قريب من هنا بالمناسبة، سأنزل عند تلك الزاوية، ربما ألبي تلك الدعوة الكريمة في وقت لاحق.. أشكرك مرة أخرى!"

لا يهم إن كان صدقني أم لا.. المهم أني تخلصت منه..

لكني بمجرد أن نزلت من السيارة، وقبل أن أتنهد بارتياح، فوجئت به أمامي!!

– "من؟ صديقي القديم؟"

إنه (أبرهة)! ماذا يفعل هنا في هذه المنطقة؟ ولماذا يتحتم عليّ أن ألقاه مصادفة في كل مكان أذهب إليه؟

– "أين ذهبت تلك الليلة؟ لقد أفقت بعد الظهر بالسرايا لم أجدك!"

هو (أبرهة) بشحمه ولحمه..

– "لقد نسيت لماذا جئتني في سرايا (جمعة) تلك الليلة.. ماذا كنت تريد؟!"

الفصل الثامن عشر

هل سمعتم أصوات دقات (الهاون) المتصلة؟

أن تفيق من نومك على تلك الدقات المتتابعة التي لا تريد أن تتوقف، وتمنعك قسرًا من مواصلة نومك، وأنت لا تملك أن توقفها، وتعرف أن أية محاولة منك ستكون نتيجتها الأولى والحتمية: القضاء على أدنى فرصة لمواصلة النوم!

لقد سمعت أصوات تلك الدقات كثيرًا، بل كثيرًا جدًا في طفولتي، لم أعد أسمعها في الواقع منذ زمن بعيد، لقد استبدلوا الهاون بأجهزة كهربية حديثة تهدر هديرًا مختلفًا، وينجز المهمة في وقت سريع، إلا أن أصوات تلك الدقات لا تزال تطن بأذني إلى اليوم، وأفيق عليها من نومي كل صباح، وأحيانًا تلاحقني في نومي في بعض الليلات، تبدأ بشكل خفيض، ثم تتصاعد كنغمات الكريشندو، وتظل تتصاعد وتتصاعد، حتى تكاد تفتك بطبلتي أذنيّ، ولا تأتي دقة الدونج الخاتمة إلا بمؤثر خارجي.. وأنا عاجز تمامًا عن التخلص منها!

تلك الدقات تقتلني! ذاك الطنين يحاصرني! وأتمنى أن تتوقف بأي ثمن!

***

قال بعضهم: إن الأستاذ كان شارد الذهن، يفكر في مشكلته مع دار النشر القديمة التي قرر إنهاء علاقته بها مؤخرًا.. وقال آخرون: بل كان يفكر في روايته الجديدة، التي يطمح في استعادة الريادة والجوائز من خلالها، بعد انقطاع طويل عن حصد الجوائز.

أنا و(أبرهة) فقط من نعرف السبب الحقيقي!

لقد كان الوغد (أبرهة) صادقًا في كل حرف تلك الليلة التي كان يفترض أن يموت فيها! لقد قال الحقيقة كاملة دون تزييف أو تنميق.

إنه واحد من تلك الحوادث النادرة التي يكون التعمد فيها من جهة المصاب، لا من جهة السائق! قال شهود العيان: إن الأستاذ تقدم لعبور الطريق شاردًا، وهو يتوكأ على عصاه المتينة، في نفس اللحظة التي أقبلت فيها تلك السيارة المسرعة، كانت المسافة قريبة جدًا، ومع ذلك لم ير الأستاذ السيارة المقبلة بالرغم من أن الطريق لم يكن مزدحمًا، ولم يسمع النفير بالرغم من أن السائق أطلقه مرارًا قبل أن يبادر إلى الضغط على الفرامل، وحدث ما لم يكن يتمناه السائق وحده!

أنصحكم قبل أن تبحثوا في تفاصيل هذه الحادثة في الصحف: أن تقرءوا تلك القصة التي كتبها (ناصر الباز) بعنوان (مقايضة)، لقد كتبها قبل عشرين عامًا مضت.. فلتعيدوا قراءتها بتركيز وتمعن شديدين.. إنها تلك القصة التي حاول الأستاذ أن يجعلها حقيقة وواقعًا، وهذه المرة لم يكن الأمر من قبيل النبوءة!

مرة أخرى: ما الذي يجعلني واثقًا من الأستاذ تعمد أن يتعرض لهذه الحادثة؟

لأني كنت هناك.. بالمشفى.. حين أفاق الأستاذ ليجد نفسه مهشمًا ومغطى بالضمادات والأربطة البيضاء في جميع أجزاء جسده عدا العينين، وغير قادر على تحريك أي طرف من أطرافه، بالكاد يحرك لسانه وأهداب عينيه وحدقتيهما، لكنه استطاع دون عناء أن يذرف الدموع!

لم يكن يبكي لما أصابه، ولا من الآلام الجسدية التي تنهشه، بل كان يبكي لاكتشافه أنه لا يزال على قيد الحياة! وقد صرح لي بهذا فعليًا حين تمكن من النطق بعد أيام، وفي الواقع لم أكن بحاجة منه إلى هذا التصريح.. لقد بقيت بجواره طيلة هذه الأيام، أجيء إليه في الصباح، وأغادر في منتصف الليل، وقد منع الأطباء جميع الناس من زيارته باستثنائي أنا..

كما أني كنت هناك بعد أن استدعوني قرب الفجر باتصال هاتفي، وقالوا لي إن الأستاذ يريدك الآن، في التو واللحظة، ويرفض الانتظار إلى الصباح، طبعًا

انزعجت بشدة، ولوهلة ظننت أنه يموت، ويريد الإدلاء بوصيته الأخيرة لي، في الواقع ظلت تلك الخاطرة تراود عقلي طيلة الطريق حتى وصلت إليه، وجلست بجوار فراشه مصطنعًا ابتسامة رقيقة عساها تخفف من حدة الموقف وسوداويته، لكن قلبي كان يرتعد بشدة لخاطرة أخرى لا أريد حتى التفكير فيها، ومن الجهة الأخرى كان جهاز التنفس يمتد منه أنبوب أبيض رفيع، يتصل بقناع مثبت فوق أنف المريض المحطم طريح الفراش!

نظر إليّ نظرة جانبية بحدقتيه الضيقتين، ثم قال من تحت قناع الأكسجين بصوت شديد الإعياء:-

- "انظر إليّ يا صديقي.. لقد صرت عجوزًا محطمًا، مهشم العظام، ممزق الأوصال، ولن أعود كما كنت أبدًا.. أبدًا.. وأنت تعرف ذلك!"

ازداد قلبي ارتعادًا، تلك الخاطرة الشنيعة تجاهد من أجل الظهور، لكني لن أسمح لها، أنا مخطئ.. بالتأكيد أنا مخطئ!

-"كان يفترض أن أموت بتلك الحادثة.. لكن للأسف لم يحدث!"

دقات الهاون تعاودني.. أنبوب الأكسجين الأبيض الرفيع! اصمت بالله عليك! اصمت!

- "لا أستطيع أن أطلب هذا سوى منك يا صديقي! أنت الوحيد!"

أنبوب الأكسجين الأبيض الرفيع!

وبدأت الدموع تتقاطر من عينيه، بينما قلبي يرتعد ويرتعد!

- "لو لم تفعل أنت، سأحاول أن أتدبر أنا الأمر بطريقتي.. سيكون الأمر مرهقًا ومؤلماً للغاية.."

دقات الهاون.. أنبوب الأكسجين الأبيض الرفيع!

اصمت بالله عليك!

- "لا أستطيع أن أطلب هذا من سواك يا صديقي! أنت صديقي الوحيد!"

قلبي يرتعد، ويرتعد..

- "كانت حياة طويلة جدًا، لكن ماذا جنيتُ منها؟ الأستاذ (ناصر الباز) الكاتب العظيم!! لكن ماذا؟ لقد عشت عمري كله أكتب عن الحياة، لأكتشف بالنهاية أني لم أعشها قط!"

اصمت بالله عليك.. توقف عن الكلام واسترح!

- "خسرت حبي الوحيد، وخسرت زواجي، وخسرت ابنتي، كانت (ثناء) محقة، أنا لست سوى قلم!"

دقات الهاون.. أنبوب الأكسجين الأبيض الرفيع! اصمت بالله عليك، واسترح!

- "انظر، هذه الوسادة، ضعها فوق وجهي، واضغط بقوة لمدة دقيقة واحدة، بل أقل من دقيقة، سينتهي كل شيء قبل ذلك، ولن يكتشف أحد الأمر، فهم يتوقعون دائمًا أن تحدث لي أزمات في التنفس.. أو اضغط على أنبوب الأكسجين بإصبعين اثنتين فقط، أقل من دقيقة واحدة.. وسأكون لك شاكرًا إلى الأبد.."

لا أستطيع.. لا أستطيع.. اصمت بالله عليك!

- "افعل هذا الآن، أو اذهب ولا تعد، لا أريد أن أراك مجددًا وأنا على قيد الحياة!"

دقات الهاون.. أنبوب الأكسجين الأبيض الرفيع! اصمت بالله عليك.. اصمت!

#اقتباس

"حياتي مقابل حياته! لا.. بل حياتي مقابل موته، أنا أقتله، وهو يمنحني الحياة..

كان (محمود) في قمة الانهيار، لا يدري كيف أمضى ليلته، إلا أنه يعرف أنها أتعس ليلة أمضاها في حياته، لكنه حين استقبل الصباح كان قد حسم قراره بشكل نهائي!"

من قصة (مقايضة) – للكاتب (ناصر الباز)

ما الخير؟ وما الشر؟ وكيف السبيل لمعرفتهما والتمييز بينهما؟

ما الصواب؟ وما الخطأ؟.. ما الحق؟ وما الباطل؟

لم أكن في صباي، أو حتى في مقتبل شبابي أتساءل عن ماهية هذه الأشياء، ولم أناقش في الحدود التي رسمها من حولي لكل مفردة من هذه المفردات، الخير: هو كل عمل نافع لا يضر، والشر خلاف ذلك، الصواب: هو ما يوافق رأي الأكثرية، والخطأ خلاف ذلك، الحق: ما تستريح إليه نفسك، ويوافق قيم الإنسانية، والباطل خلاف ذلك!

هل تعلم يا صديقي؟ لقد كفرت بكل هذا.. فجأة ذابت الحدود الفاصلة بين الخير والشر، والصواب والخطأ، والحق والباطل، واختلط عليّ كل شيء، فلم أعد أميز بين أي شيء!

حين تعتاد عيناك الظلام يصبح الضوء الساطع ضارًا لعينيك، بينما الظلام مريح لهما، لهذا يستعملون الضوء الساطع في استجواب الأسرى كما نرى في الأفلام.

ما أريد قوله: إن الضرر ها هنا يأتي من الضوء الذي يمثل الخير، أو الصواب، أو الحق.. لا من الظلام! إن كثيرًا من الأشياء تنقلب إلى النقيض في ظروف معينة.

لم أكن أعرف ما إذا كانت حياتي ظلامًا دامسًا ثم سطع فيها الضوء بغتة، أم العكس.. فقط أعرف أن ثمة نقاطًا فاصلة في حياتنا، يحدث فيها تحول رهيب بحيث لا تعود بعدها حياتنا كما كانت قبلها، إنها محطات تتغير فيها مساراتنا، مفترق طرق يقودنا إلى وجهة مغايرة عن التي كنا نقصدها من البداية!

الفصل التاسع عشر

إن الحياة هشة بحق، وسريعة الزوال! كثيرًا ما أتساءل عن هؤلاء الذين ماتوا في حوادث، هل فكر أحدهم للحظة وهو خارج من بيته – يوم الحادثة – أنه لن يعود؟ وما الذي يخطر في باله وهو يرى اندفاع السيارة أو القطار باتجاهه، ولا يملك أن يتفادى ذلك؟

ما أسهل أن يموت الإنسان! وما أسرع أن ينتقل من وجه الأرض إلى باطنها! أنا نفسي أعرف أني سأموت يومًا ما، لكن متى؟ وكيف؟ وهل سأكون على علم بذلك قبلها؟ ومع الوقت نما سؤال جديد في ذهني: من الذي سيزور قبري بعد موتي؟ وماذا سيقول أو يفعل هناك؟

كنت في طفولتي أزور قبر أبي رفقة أمي، أول ما نبدأ به في المقابر قبر أبي، أمي تقف في خشوع تتمتم بكلمات لا أسمعها ولا أدركها، وتطيل الوقوف أمام هذا القبر بالذات، وبعد أن تفرغ من التمتمة التي لا أميزها تنتقل إلى عدة قبور أخرى، لكنها لا تطيل المقام مثلما تفعل عند قبر أبي، تقف قليلًا تتمتم بذات الطريقة، التي لا أسمعها ولا أفهمها، ثم نمضي عائدين إلى دارنا.

لم أكن أشعر بخوف أو انقباض أو حتى حزن وأنا معها بالمقابر، بل لم أكن أشعر بأي شيء على الإطلاق، فقط حيرة وتساؤلات، ما الفرق بيننا وبين الذي هناك تحت الأرض؟ وهل يشعرون بنا ويسمعوننا؟ ولماذا نُصِرُّ على زيارة قبورهم ما دمنا لا نستطيع التواصل معهم مباشرة؟ وهل لو نزلنا في أعماق تلك الحفر سنراهم؟ وعلى أية هيئة نراهم؟ فقط حيرة وتساؤلات، لا شيء سوى ذلك!

أذكر ذات مرة أني سألت أمي:-

- "لماذا مات أبي؟"

أجابت دون أن تنظر إليّ:-

- "لأنه طيب، الطيبون يموتون أولًا!"

نظرت إليها في وجل، كنت أصغر من أستوعب هذا المنطق، لكنها أضافت بعد ذلك:-

- "الأوغاد يعيشون حياة طويلة، ويستمتعون بها جيدًا"

ورأيت الدموع تترقرق في عينيها، وأنا لا زلت لا أفهم!

كل ذكرياتي عن أبي هي تلك الزيارات، لا شيء سوى ذلك، ثم تغير الأمر حين كبرت وصرت آتي إلى هنا على فترات متباعدة لأزور قبر الأستاذ (جاد)، ثم قبر أمي، لم تعد تلك التساؤلات القديمة تراودني، فقد حلت محلها تساؤلات جديدة، أهمها: كيف هو الموت؟ وعلى أي أساس ينتقي الناس؟

***

- "مرحبًا.. أنا (مختار).. لا يهم كم عمري، لكني كهل كما ترون، أنا في الدنيا منذ زمن طويل، المدهش أن هذا الزمن الطويل مر سريعًا دون أشعر به من فرط سرعة مروره!"

أخيرًا حان دوري، كنت أخشى هذه اللحظة كثيرًا، لكن المدهش أنها حين جاءت لم أجدها مخيفة كما كنت أظن..

أشياء كثيرة تغيرت هنا حتى حان دوري، الوجوه لم تعد كالحة بائسة، النظرات لم تعد يائسة مستسلمة، الحواجب لم تعد منعقدة، والأفواه لم تعد مزمومة، والأنفاس لم تعد متقطعة، حتى هذا الحنق المكتوم في الصدور امحى، وحل محله الرضا والقبول، كل شيء حولي يدعو للرضا، كل شيء يدعوني لأتحدث بثبات.

- "في الواقع لا يوجد في حياتي ما يستدعي أن أحكيه لكم، أنا لا أشاهد

الإنمي، ولا أعزف البيانو، ولا أجري مقابلات مع السفاحين لحسن حظي!"

قلت هذا وأنا أشير إلى الثلاثة المعنيين من بينهم، قواعد د. (نجيب) صارمة، لكنهم كسروها بالضحك، وهو لم يعترض، واصلت بثبات:-

- "ليس في حياتي أي شيء يستدعي أن أحكي عنه، لذا ....."

الترقب بادٍ في العيون..

- "سأحكي لكم عن صديقي المقرب الكاتب الراحل (ناصر الباز).."

التقطت نفسًا عميقًا قبل أن أستطرد بصوت عميق:-

- "كان (ناصر الباز) رجلًا مثاليًا.. بل كان عظيمًا.. أو قل: كان أسطورة!"

والترقب لا يزال باديًا في العيون!

***

لماذا أنا هنا؟

- "أشعر أني تحسنت كثيرًا، ولم أعد بحاجة لمزيد من العلاج أو الجلسات"

- "أنت كذلك بالفعل، لكن مثل هذا التحسن لا يفرح به ما لم نتوصل إلى جذور المشكلة، لنضمن عدم حدوث انتكاسات، أو عدة عودة تلك النوبات لمهاجمتك، لذا سنستمر على العلاج بعض الوقت مع تغيير طفيف، وسنواصل الجلسات حتى أصل إلى ما أريد، ونتأكد من أنك شفيت تمامًا"

- "ما الذي تريد أن تصل إليه بالضبط؟!"

- "أسباب وجذور هذه الاضطرابات!"

- "أية أسباب؟ لقد أجبت عن جميع أسئلتك، وقلت كل شيء أردت أن تعرفه!"

- "هل حقًا فعلت؟"

- "هل لديك شك؟"

- "في الحقيقة نعم.. لكن دعني أخبرك بما أعرفه حتى تخبرني أنت بما لا أعرفه: أعتقد أن الأمر يتمحور حول وفاة صديقك (ناصر الباز)، لقد كان يمثل لك شيئًا عظيمًا للغاية، ربما كان هو العوض بالنسبة لك عن أبيك الذي لم تره، وعن الأستاذ (جاد) الذي كنت تعتبره معلمك وقدوتك، وحتى عن أمك التي تكفلت بك حتى صرت شابًا، أنت لم تتزوج، ولم ترتبط بأحد، ولم يكن لديك أسرة سواه، كان (ناصر الباز) بالنسبة لك كل شيء، موته كان قاصمًا لك، لكن هذا ليس كل شيء، لن أستطيع الجزم بشيء الآن حتى أعرف ما أظنك تخفيه، أنت مصاب أيضًا بحالة من الإنكار بجانب ذلك!"

- "الجزء الأول من كلامك صحيح جدًا، كان (ناصر الباز) بالنسبة لي الأب والأخ الأكبر، والصديق الأوحد، بما يعني أنه كان لي كل شيء، وكان موته قاصمًا لي، لكني قلت لك كل شيء، ولم أخف عنك شيئًا على الإطلاق.."

- "لا بأس.. سوف نكتشف ذلك عاجلًا أو آجلًا!"

***

هذا المصباح يضفي جوًا رومانسيًا على الجلسة، لم أر في حياتي مصباحًا يتدلى من السقف في وسط الحجرة بهذه الطريقة سوى في التليفزيون، أعتقد أنها كانت موضة قديمة عقب اكتشاف المصباح الكهربائي، الآن – في زماننا هذا – تثبت المصابيح في أعالي الجدران، وفي الأركان، مصباح وهاج يتدلى من السقف يبدو أشبه بالقمر حين يكتمل، ويرسل نوره الفضي على رءوس العشاق!

- "لقد علمني (ناصر الباز) أهم مفردات في حياتي: الخير والشر، الصواب والخطأ، الحق والباطل، وعلمني كيف أميز بين تلك الأشياء، وكيف أعرف أن هذا العمل ينتمي للخير، وذاك ينتمي إلى الشر.. أنا مدين لـ (ناصر الباز) بكل

شيء.."

كانوا ينصتون إليّ باهتمام شديد، وعلى وجوههم ابتسامة طيبة، وبعضهم يومئ برأسه في إعجاب، مما شجعني على الاستمرار:-

- " لقد تعلمت منه أن أكره الزيف، أكره الباطل، أكره الجبروت، أكره القبح! وأن أنحاز دائمًا إلى البسطاء المنسحقين.. كما تعلمت منه أن أفتش دائمًا عن الإنسان في منابعه الأولى، قبل أن تحوله الحياة إلى آلة حاسبة، أو ترسًا في ماكينة لا تهدأ ولا تتوقف عن العمل مطلقًا! تعلمت منه أن أمتزج بالإنسانية كلها، وأن أعتبر آلام المعذبين في أقصى أنحاء العالم هي آلامي أنا! لو سألتموني عن أمنيتي الكبرى في الحياة، لقلت لكم دون تردد: إني لم أتمن شيئًا من الحياة سوى أن أكون مثله!"

ودوى التصفيق الحار من الحاضرين!

في آخر الجلسة كان الجميع يهنئونني، لست واثقًا علام كانت التهنئة بالضبط، وبعضهم عزاني فيه بالرغم من مرور أكثر من عام على موته، ثم رأيت ذلك الأشيب عازف البيانو – ماذا كان اسمه؟ – يصافحني بود شديد، ويقول:-

- "لقد دمعت عيناي وأنا أنصت لك، لقد قرأت بعض كتابات (ناصر الباز) وراقتني كثيرًا، لكني لم أتخيل هذا البعد الإنساني العميق لها إلا حينما استمعت إليك أنت، أعتقد أن المرحوم كان محظوظًا بصداقتك، أكثر مما كنت أنت محظوظًا بصداقته!"

ابتسمت له بود مماثل، ولم أجد ما أجيبه به سوى تلك الابتسامة الودود، ثم انتبهت إلى تلك الصحافية، التي أظن كان اسمها (نادية)، تقف من بعيد تنظر إليّ باسمة، وكأنها تنتظرني، فتوجهت إليها قائلًا:-

- "إن كنت تريدين تكرار دعوتي إلى العشاء لا بأس، أنا موافق. لننطلق الآن!"

انطلقنا سويًا وهي تبتسم.

ومررنا في طريقنا بفتاة الإنمي التي كانت تنظر إليّ باسمة هي الأخرى، فقلت لها:-

- "بالمناسبة: لقد شاهدت مسلسل إنمي منذ فترة قريبة اسمه (مفكرة الموت)، يحكي عن شخص يقتل الأشرار بطريقة ما، راقتني الفكرة كثيرًا.."

ضحكت بطريقة طفولية، وقالت مبتهجة:-

- "نعم إنه رائع للغاية، شاهدته مرات عديدة!"

قلت:-

- "يبدو أن قتل الأوغاد أمنية البشرية كلها، مما يجعلني أتساءل: من أين يأتي الأوغاد أصلاً؟"

ولوّحت لها تحية وداع، وهي تنظر لي بجذل! ثم مضيت برفقة صحافية الحوادث..

أتدري يا صديقي: إن حياتنا ليست كما تبدو عليه، نحن أنفسنا لسنا كما نبدو عليه، وأعتقد أن هذا ليس سيئًا على الإطلاق.. بعض هذه الأشياء يستحسن أن لا تبدو على حقيقتها، القمر مثلًا نراه في السماء جميلًا منيرًا، لكنه في حقيقته ليس سوى صحراء جرداء موحشة! الحقيقة – في العادة – قبيحة جدًا يا صديقي.. أقبح وأشنع من أن نتحملها أو نتقبلها..

وهذا هو الدرس الوحيد الذي لم أتعلمه من (ناصر الباز)!

***

الفصل العشـــــرون

عزيزي: (أبرهة)..

لأول مرة في حياتي أناديك بهذا الاسم وأنا أخاطبك مباشرة، وإن كان خطابًا مكتوبًا، لا وجهًا لوجه، طبعًا أنت تتوقع وتنتظر مني العديد من الخطابات من نوع آخر، وأؤكد لك أن تلك الخطابات جاهزة ومكتوبة، كما أؤكد لك أني كتبتها على أفضل ما يكون، وبأسلوب يعلو على أي كاتب كتب مثلها في تاريخ البشر، لقد أودعت فيها عصارة خبراتي وقراءاتي طيلة حياتي، لكنك لن تحصل عليها إلا إذا فعلت ما أريده منك، لقد حان دوري أنا لألعب لعبة المقايضة!

لقد كنتَ محقًا فيما قلته ليلتها، كلانا – أنا و(ناصر الباز) – لم نعش الحياة قط، لقد قضيت النصف الأول من عمري قابعًا خلف آلة كاتبة، أنقر على أزرارها وأستمتع بصوت الطقطقة، وخلال هذه الفترة اطلعت على مئات – وربما آلاف – الكتب والقصائد والقصص والمقالات، ثم قضيت النصف الآخر قابعًا خلف مكتب وقد أسندت مهمة النقر على الأزرار لآخرين يعملون تحت إمرتي، وتوقفت خلال هذه الفترة عن الاطلاع على أي شيء مكتوب، سوى ما كان يكتبه صديقي (ناصر الباز)، وهكذا انقضى عمري كاملًا وأنا قابع خلف طاولة حتى مرقت مني الحياة دون أن أشعر بها.

الآن أسأل نفسي ذات السؤال الذي طرحه (ناصر الباز) على نفسه قبل رحيله: ماذا جنيت من هذه الحياة؟ على الأقل هو جازف وتزوج، أنا لم أجازف، وهو لمع اسمه ككاتب ونال الشهرة والجوائز وبعض الأموال، لكني لم أنل أي شيء على الإطلاق! لقد عشت عمري كله في الظل، بل في الظلام،

وجبنت عن مواجهة النور. لكن هذا لا يعني أنك أفضل مني ومن صديقي، عن نفسي لو خُيّرتُ ألف مرة بين أن أعيش حياتي الخاوية في الظلام، وبين حياتك أنت، لاخترت حياتي في كل مرة دون ذرة ندم!

ومع ذلك أنت تفوقنا في أهم شيء: أنك راضٍ وقانع بحياتك، لهذا أنت من تستحق مواصلة الحياة دوننا.

أنت لم تقرأ لـ (ناصر الباز) مثل قرأت أنا، كما أنك لم تعرفه كما عرفته أنا.. لم تعرف (ناصر الباز) الكاتب، ولا الإنسان، لقد كتب (ناصر الباز) عشرات القصص الطويلة، ومئات القصص القصيرة، هل تعلم ما أكثر شيء برع فيه؟ صياغة النهايات.. قد تروقك بعض تلك النهايات، وقد لا يروقك البعض الآخر، لكنك لو أعدت قراءة أية قصة مرة أخرى لن تجد نهاية أخرى صالحة لها سوى النهاية التي صاغها هو بنفسه، إنه لا يترك للقارئ بديلًا على الإطلاق، وهي السمة التي اعتبرها بعض النقاد عيبًا فيه، بينما رآها غالبية النقاد وجميع القراء مزية رائعة.

لقد صاغ (ناصر الباز) في قصصه جميع النهايات المعروفة في عالم الأدب: النهايات المفتوحة والمغلقة، النهايات السعيدة والحزينة والصادمة، لكنك في جميع الأحوال لن تجد بديلًا صالحًا لأية نهاية صاغها سواها، حتى استطاع في آخر الأمر أن يصوغ نهايته بنفسه!

تقرير المشفى أكد أنه مات نتيجة أزمة في التنفس سببت له الاختناق، وأن هذا كان أمرًا واردًا في حالته، وبالتالي لا توجد شبهة جنائية في الأمر، ولم يتم فتح أي تحقيق في وفاته، والأستاذ نفسه أدلى بأقواله في التحقيق المبدئي، وبرأ السائق الذي صدمه بسيارته ابتداء، وألقى بالتبعة على نفسه، بل إنه أوصى محاميه بأن يتدبر شيئًا من تركته بشكل قانوني لصالح ذلك السائق، تعويضًا له عن الاتهام

والأذى النفسي والبدني الذي ناله من جراء تلك الحادثة التي لم يكن مسئولًا عنها، ألم أقل لك إن (ناصر الباز) بارع جدًا في صياغة النهايات؟

لقد نعته الصحف طويلًا، ورثاه الأصدقاء والقراء كثيرًا، وإلى اليوم ما يزال قبره مزارًا لكثير من الناس، لكن أحدًا من هؤلاء الذين نعوه لن يعرف أنه هو الذي صاغ نهايته بنفسه سواي أنا!

الآن أنا سأفعل ذات الشيء، لقد فشلت في صياغة حياتي كما أريد، ولا أظنني قادرًا على صياغة نهاية مناسبة لنفسي، لذا سأقتبس ذات النهاية اللي صاغها (ناصر الباز) لنفسه، وهذا ما سوف أقايضك عليه.. تريد تلك الخطابات التي تظن أنها ستعيد لك محبوبتك؟ لا بأس لكنك لن تحصل عليها بالمجان، ولا بالتهديد والترهيب، ستحصل عليها فقط إذا دفعت المقابل المناسب، وأنت تعرف جيدًا ما المقابل المناسب!

لقد منحني (ناصر الباز) الكثير والكثير، وأهم ما منحنيه: الاحترام والمودة الخالصة، لكنه بالنهاية قايضني على صداقته، واستراح هو لكني لم أسترح، ولن أستريح، هو الذي علمني أن الحياة سلسلة طويلة وممتدة من المقايضات، لكني لم أستوعب هذا الدرس سوى بموته! والآن عليك أنت تعرف أنه لا سبيل أمامك سوى تلك المقايضة، فهل أنت على استعداد لقبولها؟

إن الحياة هشة بحق وسريعة الزوال، ومع ذلك يظل بوسعنا دائمًا أن نستثمرها ونحياها على أفضل ما يكون، فقط إذا عرفنا كيف نغتنم فرصها، وكيف ننظر من الزوايا الصحيحة إليها، وكلانا – أنا وصديقي الراحل – أهدر فرصه، وأخفق في النظر إليها بالشكل الصحيح، ولم تعد أمامي فرصة لتصحيح المسار، كما أن هذا العبء الذي تحملته يرهقني كثيرًا، ود. (نجيب) لم يساعدني في إزاحته كما كنت أرجو..

هل تستطيع أنت؟

الفـــــهرس

الفصل الأول..... ٣
الفصل الثاني..... ١٢
الفصل الثالث ٢١
الفصـــل الـــرابع..... ٣٠
الفصـــل الخامس..... ٣٧
الفـــصل السادس ٤٥
الفصل السابع ٥٣
الفصل الثامن ٦٤
الفصل التاسع ٧٠
الفصل العـــــــاشر ٧٧
الفصل الحادي عشر..... ٨٣
الفصل الثاني عشر..... ٩٣
الفصل الثالث عشر ١٠١
الفصل الرابع عشر ١٠٦
الفصل الخامس عشر..... ١١٧
الفصل السادس عشر ١٢٥
الفصل السابع عشر..... ١٣٣
الفصل الثامن عشر ١٤٠
الفصل التاسع عشر..... ١٤٥
الفصل العشـــــــرون..... ١٥١

رواية (مقايضة)

تأليف: جابر القصاص

تنسيق: إيمان محمود محمد

غلاف: محمد مخلوف

رقم الايداع: .../2022م

الترقيم الدولي: 978-977-86376

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من الكاتب يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لاغير

ابن معيط للطباعة

ت: ٠١٢٢٢١٢٣٥٨٣٣ ـ ٠١٠٦٢٧٦٥٧٣٦

بريدالكتروني: ahmedragbmait@gmail com

(الطبعة الاولى ٢٠٢٢م)

جابر القصاص

مقايضة

إن الحياة هشة بحق وسريعة الزوال..
ومع ذلك يظل بوسعنا دائمًا أن نستثمرها
ونحياها على أفضل ما يكون، فقط إذا عرفنا
كيف نغتنم فرصها، وكيف ننظر من الزوايا
الصحيحة إليها، وكلانا – أنا وصديقي الراحل –
أهدر فرصه، وأخفق في النظر إليها بالشكل
الصحيح، ولم تعد أمامي فرصة لتصحيح المسار،
كما أن هذا العبء الذي تحملته يرهقني كثيرًا،
وطبيبي النفسي لم يساعدني في إزاحته كما
كنت أرجو.. فهل تستطيع أنت؟

مقايضة

ابن معيط للطباعة